أضواء
على بعض الأمثال في القرآن الكريم

الأستاذ خالد معتوق
حلب - سورية

إذا كانت الأمثال صفوة تجارب العقول والقلوب، وميراث حكمة الأمم عبر الحياة، فأمثال القرآن الكريم خير الأمثال وأعظمها، لأنها من كلام العليم الحكيم، والمثل السائر منها هو الحكمة البالغة للناس والحجة الدامغة للعقل، ولما استحوذت آيات القرآن الكريم على قلوب المسلمين منذ فجر الإسلام، فقد جرت بعض آيات منه على الألسنة مجرى المثل، وأضحت من أصدق الوسائل الأدبية تعبيراً.

ولقد صنِّفت في مجال الأمثال القرآنية كتب عديدة، منها المفقود الذي لا نعرف إلاّ اسمه واسم مؤلفه ككتاب «أمثال القرآن» للقواريري، من رجال القرن الثالث الهجري: ومنها ما وصلنا ككتاب «الأمثال من الكتاب والسنّة» للحكيم الترمذي من رجالات القرن الثالث الهجري أيضاً، وجمع في كتابه هذا طائفة من أمثال القرآن الكريم، والحديث الشريف والحكماء إضافة إلى الأمثال التي اهتدى إليها بنفسه، و أمثاله تدور في فلك حكمة القرآن الكريم، والمعاني الإسلامية. أما السيوطي فقد نقل لنا عن الماوردي مجموعة من أمثال القرآن الكريم فشرحها وعلّق عليها وساهم علماء آخرون بجهود محمودة في هذا المجال.

وكثرت في العصر الحديث الكتب التي تناولت الأمثال عامة، والأمثال القرآنية خاصة، ومعظم جهود المعاصرين تنحصر في جمع تلك الأمثال. وثمّة من بحث في الأمثال القرآنية بوجه عام، منهم الدكتور بكري شيخ أمين، في كتابه «التعبير الفني في القرآن» وعبدالرحمن حبنكة في كتابه «الأمثال القرآنية» حيث وجّه عنايته إلى الجانب البلاغي والفنّي في الأمثال.

وللأمثال أهمية كبرى في حياة الشعوب، ولها قيمة عظيمة في عمر الحضارات، لأنها مرآة صافية تعكس خبرة قرون طويلة، وصورة ناصعة ترتسم على قسماتها حكمة الأيام، فهي عصارة فكر السلف، وصفوة تجارب الإنسان، في عبارة قصيرة تندرج حكاية طويلة، وفي جملة موجزة بليغة تكمن قصة مسهبة، إنها «وشي الكلام، وجوهر اللفظ، وحَلْي المعاني... فهي أبقى من الشعر، وأشرف من الخطابة، لم يسر شيء مسيرها، ولا عمّ عمومها، حتى قيل: أَسْيَر من مثل...»(١)

والجذر الثلاثي م، ث، ل، جذر قديم عرفته اللغات الساميّة، فهو في اللغة العربية (مَثَلٌ)، وفي الآرامية (matla – مَطْلا)، وفي الحبشية (mesel – مِسِل بالإمالة)، وفي العبريّة (masal – ماشـال). وفي الآكاديّة (mislum – مِشْلُوم). وحسب اشتقاق هذه الأسماء فإنها تتضمّن معنى المشابهة والمماثلة.

والمَثَل في المعاجم العربية يعني: الشبيه والنظير، والحديث نفسه، والشيء الذي يضرب لشيء مثلاً، فيكون مثله، وهو بمعنى الصفة، وربما استُعير لفظ (المَثَل) للحال العجيب والشأن الغريب(٢)

والمَثَل في الأدب قول محكيّ سائر، يُقصَد منه تشبيه حال الذي حُكيَ فيه بحال الذي قيل لأجله، كقول العرب: «ربّ رميةٍ من غير رام» أي ربّ إصابة هَدَف حصلت من رامٍ أي رب إصابة هدف حصلت من رام شأنه أن يخطىء، فهذا المثل وضع في أصله لمعنى معيّن، ويجوز أن يقال ويتمثّل به في كل حال تشبه الحال الأصيلة الأولى... ولا تختلف صيغة المثل في استعمالاته كلها، فإذا خوطب رجلٌ أو اثنان أو أكثر أو امرأة أو اثنتان أو أكثر قيل: «ربّ رمية من غير رام» دون زيادة أو نقصان(٣)

والفرق بين المثل والحكمة هو أن الحكمة تعني الإصابة في القول والفعل والفهم، وتفيد معنى واحداً من نهي أو أمر أو إرشاد. أما المثل فإنه يفيد معنيين: المعنى الظاهر وهو إمّا حدث تاريخيّ أو قصة أو حادثة لها شأن غريب، والمعنى الباطن الخفي، ومرجعه إلى الحكمة والإرشاد، وفيه يلتقي المثل بالحكمة في المؤدّى، وإن كانا مختلفين في بعض صفاتهما وخصائصهما.

المثل في القرآن الكريم

إنه توضيح بعد غموض، وجلاء يعقب خفاء، وهو وعد ووعيد، وهديٌ وإرشاد وتوجيه، وتأنيب وتحذير وتقريع، وأحوال سالفة، فيها موعظة وعبرة ودعوة إلى الخير والحق والفلاح، فالأمثال في القرآن الكريم لون من ألوان الهداية الإلهية، تحض النفوس على الخير، وتحثها على البّر، وتحذّرها مانعةً إياها من ارتكاب الآثام. «وكل آية قرآنية ذكر فيها لفظ (مثل) هي من الأمثال، كذلك فإنّ ما يضربه الله للناس من أقوال تتضمّن مافيه غرابة، من تشبيه أو استعارة أو قصة يُعَدُّ من الأمثال القرآنية»(٤) التي تتصف بإيجاز اللفظ وإصابة المعنى وحسن التشبيه وجودة الكناية.

وقد استخدم القرآن الكريم الأمثال في مدلولها العربي وكما يفهمها عامة الساميين، في إبراز المعقول في صورة المحسوس، وكشف الحقائق، وتقريب المعاني إلى الأفهام، وعرض الغائب في معرض الحاضر، وجمع المعنى الرائع في عبارة موجزة، تثبت المعنى في الذهن، وتسهّل طريق التأسّي والوعظ، وتدفع إلى الإقناع بأوجز سبيل.

ويتفق أغلب الدارسين على تقسيم أمثال القرآن إلى الأنواع التالية:

الأمثال الكامنة، والأمثال الصريحة أو القياسيّة، والأمثال السائرة.

فالأمثال الكامنة هي التي يُفهَم من معناها أنها تشبه أمثالاً من الأمثال العربيّة، ولا ذِكر فيها لكلمة (مثل)، إنها «أمثال بمعانيها لا بألفاظها»(٥) لذلك سوّغ الباحثون لأنفسهم تسميتها بالأمثال الكامنة.

وينقل السيوطي(٦) عن الماوردي أن رجلاً سأل الحسن بن الفضل أسئلة عن بعض أمثال العرب ووجود ما يقابلها في القرآن الكريم من آيات، منها سؤاله أين أجد في كتاب الله كقولهم: «خير الأمور أوساطها»؟ فأجاب: تجده في أقواله تعالى «لا فارضٌ ولا بِكْر عَوانٌ بين ذلك»(٧). و«الذين إذا أنفقوا لم يُسرفوا ولم يَقْتُروا، وكان بين ذلك قواماً»(٨) و«لا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كلّ البسط»(٩). و«لا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً»(١٠). فسأله: وأين أجد قول العرب: من جَهِل شيئاً عاداه. فقال: تجده في قوله تعالى: «بل كذّبوا بما لم يحيطوا به»(١١) و«وإذْ لم يهتدوا به فسيقولون: هذا إفك قديم»(١٢).

ويمضي السيوطي في ذكر أمثال هذه الآيات، فيورد أحد عشر مثالاً من هذا القبيل، ويبدو لنا الإفراط في التكلّف، لأنه لا يمكننا إطلاق كلمة (المثل) على تلك الآيات، وإن حملت معنى مثل دارج سائر، لأن الصيغة التي تشترط في المثل لا تتوافر فيها، لذلك نرّجح رفض ماجاء به السيوطي ومن نسج على منواله، ولا نعدّ الأمثال الكامنة تندرج في بحث الأمثال.

والأمثال الصريحة أو القياسيّة هي التي وردت فيها عبارة (مثل) كقوله تعالى: «مثلهم كمثل

الذي استوقد ناراً، فلما أضاءت ماحوله، ذهب الله بنورهم، وتركهم في ظلماتٍ لا يبصرون»(١٣) وكقوله تعالى: «مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة...»(١٤) وكقوله تعالى: «واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون...»(١٥) وغير ذلك.

إن كلمة (مثل) قد وردت في صدر الآيات، وإن الغاية من ضرب المثل تصوير حادثة يُقصَد منها التأديب أو التحذير أو إيضاح طريقة السلوك الإنساني أو الإخبار بما يفيد العِلم بطريقة تمثيليّة، ويلاحظ الإطناب فيما يسمّى بالأمثال الصريحة إذا ما قارنّاها بالمثل السائر الذي يتّصف بالإيجاز. كما أن هذه الأمثال تجمع عمق الفكرة إلى جمال التصوير، فهي لا تلخّص قصّة أو حادثة، ولا تشير إليها إشارة لمّاحة، وإنما هي قصّة كاملة، وردت على صورة مثل، يهدف إلى التأديب أو الإرشاد، لذلك اتّصف هذا النوع من الأمثال بقلة السيرورة.

علماً أن البلاغيين والمفسّرين لم يقتصروا على هذه الأمثال في أثناء حديثهم عن التمثيل في القرآن، بل أضافوا إلى ذلك أمثالاً من القصص والصور المجازية وعدّوها من المثل القياسي، على الرغم من أن لفظ «مثل» لم يرد فيها صراحة. من ذلك قول الشيخ محمد عبده في تفسير قوله تعالى: «أو كالذي مرّ على قريةٍ وهي خاويةٌ على عروشها، قال: أنّى يُحيي هذه اللهُ بعد موتها فأماته الله مائةَ عام ثم بعثه. قال: كم لَبِثْتَ قال: لَبِثْتُ يوماً أو بعض يوم. قال بل لَبِثْتَ مائة عام، فانظر إلى طعامكَ وشرابك لم يتسنّه، وانظر إلى حمارك، ولنجعلَكَ آيةً للناس...»(١٦) قال: «ويحتمل أن تكون القصة من قبيل التمثيل والله أعلم»(١٧).

وإذا أمعنّا النظر في مادة الأمثال القياسيّة، استطعنا تبيُّن طائفتين منها: الأولى يتجه موضوعها إلى السلوك الإنساني إزاء رسالة الله ودعوته. والثانية تتجه مادتها إلى مخلوقات الله وملكوته. والأمثال المصرّحة أو القياسية في القرآن يبلغ عددها اثنين وعشرين مثلاً من الطائفة الأولى وثمانية أمثال من الطائفة الثانية.

وأما الأمثال السائرة فهي في جملتها مبادىء دينية وخلقيّة مركّزة، وقد اكتسبت صفة المثل بعد نزول القرآن الكريم، فلم تكن أمثالاً في وقت النزول. وتمتاز بأنها جُمل مُرسَلة من غير تصريح بلفظ التشبيه، ويمكن استعمالها فيما يشبه ما وردت فيه. وتتّسم بالإيجاز في العبارة والشمول في المعنى، لذلك فهي أشدّ وقعاً وأبعد أثراً في النفوس والقلوب، تتوغّل بعمق بمعانيها في العقول فتكون أشد إقناعاً للمتلقي من وصف الشيء ذاته. فمن عَقلَ الأمثال القرآنية سمّاه الله عالماً، لقوله تعالى: «وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلاّ العالمون»(١٨).

ونذكر من الأمثال القرآنية السائرة – التي يربو عددها على مائتين وخمسة وأربعين مثلاً – طائفة على سبيل المثال لا الحصر:

«كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة»(١٩). «لا يكلّف الله نفساً إلاّ وسعها»(٢٠). «وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم»(٢١). «لكل نبأ مستقرّ»(٢٢). «كلُّ نفس ذائقة الموت»(٢٣). «لا يستوي الخبيثُ والطيّب»(٢٤) «لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تُحِبّون»(٢٥). «الآن حَصْحَصَ الحقّ»(٢٦). «ذلك بما قدّمت يداك»(٢٧). «أليس الصبح بقريب»(٢٨). «ولا يَحيق المكرُ السيّئُ إلاّ بأهله»(٢٩). «قل كلٌّ يعمل

على شاكلته»(٣٠) «كلٌّ من عليها فان»(٣١). «ولا تنسَ نصيبك من الدنيا»(٣٢). «كلُّ حزب بما لديهم فرحون»(٣٣). «ضَعُفَ الطالبُ والمطلوب»(٣٤). «تَحسَبُهم جميعاً وقلوبهم شتَّى»(٣٥). «كلُّ نفسٍ بما كسبت رهينة»(٣٦). «قضي الأمر الذي فيه تستفتيان»(٣٧) «هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان»(٣٨). «لمثل هذا فليعمل العاملون»(٣٩). «ليس لها من دون الله كاشفة»(٤٠). «هذا فراق بيني وبينك»(٤١) «وما على الرسول إلاّ البلاغ»(٤٢) «إن أنكر الأصوات لصوت الحمير»(٤٣). «وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلبٍ ينقلبون»(٤٤). «ادفع بالتي هي أحسن»(٤٥). «لكم دينكم ولي دين»(٤٦). «لم تقولون مالا تفعلون»(٤٧). «إنّ مع العسر يُسرا»(٤٨)

وقد درس البلاغيّون الأمثال القرآنية السائرة ومنهم الجرجاني في «دلائل الإعجاز»(٤٩) والقزويني في «التلخيص في علوم البلاغة»(٥٠) والزمخشري في «الكشّاف»(٥١) فتحدثوا عنها في أبواب الاستعارة والتشبيه والمجاز على أنها شواهد تنطوي على نكتٍ بلاغيّة، ولم يبحثوا في إطارها الفكري و الفنّي العام.

دراسة وتحليل لبعض الأمثال القرآنية

قال الله تعالى: «**مَثَلُ الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً**»(٥٢). لقد شبّه الله تعالى اليهود الذين حُمِّلوا التوراة فقرأوها، وحفظوا مافيها، لكنهم لم يعملوا بما جاء فيها، بحال الحمار الذي يحمل الكتب القيّمة، وهو جاهل بمضمونها، ووجه الشبه بين اليهود والحمار في هذا المثل شقاء كلٍّ منهما باستصحاب ما يحتوي على المنافع العظيمة، من غير أن يحصل على شيء من فوائدها، وغرض التشبيه أو التمثيل هو ذمّ اليهود وتقبيح أمرهم بتلك الحال.

وقال الله تعالى: «**ولا تجعل يدك مغلولةً إلى عنقك، ولا تبسطها كلَّ البسط فتقعد ملوماً محسوراً**»(٥٣). إنها قاعدة إلهية، يعلّمها الله الناس، كي يحسنوا تصريف أمورهم المعاشيّة، فلا بخل إلى درجة الشحّ والمنع، ولا إنفاق من غير داعٍ إلى درجة التبذير، ففي كلتا الحالين يكمن عظيم الضرر، فيكون صاحبهما عرضة للّوم أو الفاقةً والعجز، وجاء التمثيل باليد المغلولة كناية عن التقتير والبخل، أما التصوير ببسطها فهو كناية عن التبذير والإسراف. وكلاهما مذموم. والاستعارة في هذه الآية تبدو من خلال استعمال (اليد) بهذا المعنى، فمنْعُ النائل بمنزلة تقييد اليد إلى العنق، وهي من قبيل استعارة المحسوس للمعقول.

وقال الله تعالى: «**وما أبرىء نفسي، إنّ النفس لأمّارةٌ بالسوء إلاّ مارحم ربي**»(٥٤). يسوق الله تعالى هذا الكلام على لسان امرأة العزيز في معرض دفاعها عن نفسها بعد حادثة تمزيقها لقميص يوسف عليه السلام، فتنفي العصمة عن نفسها، وتصف النفس بأنها داعية إلى الغيّ والأمر بالسوء، إلاّ الذي عصمه الله من الزلل والخطأ، فأحاطه برحمته وعنايته، فهو في منجاة من ذلك(٥٥). ويرى الشريف الرضيّ أن النفس في الحقيقة لا تأمر. ولكنّ الإنسان لمّا تبع ميلها إلى

الشهوات، فانقاد وراء دواعيها، كانت أمرة له، وكان مطيعاً لها. وفي صيغة المبالغة (أمّارة) تعبير دقيق عن صفة النفس التي تستهوي الفساد وتستلذّ الرذيلة. ويرى القزويني(٥٦) في الجملة الثانية المستأنفة «إن النفس لأمّارة بالسوء» معنىً لطيفاً، يُنزلُ السؤال منزلة الواقع، وذلك بتقدير سؤال، وتَرْكِ العاطف بين الجملتين، وهو ما يسمّى بالفصل، فَكأن الجملة جواب السؤال: هل النفس أمّارة بالسوء؟ فيأتي الجواب: إنّ النفس لأمّارة بالسوء. ويظهر بجلاء الإلحاح على تأكيد المعنى، بوساطة (إنّ) و(لام التوكيد، المزحلقة). ولايخفى أنّ هذه الآية الكريمة التي تجري مجرى المثل السائر، تنقسم إلى ثلاثة أقسام، كل قسم منها بمثابة مثل سائر بمفرده، فيقال في موقف الاعتراف بالخطأ: «وما أُبرىء نفسي». وفي مقام ذمّ النفس: «إن النفس لأمّارة بالسوء». وفي حال الاستثناء من الخطايا: «إلاّ ما رحم ربّي».

وقال الله تعالى: «**ياأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن، إن بعض الظن إثم، ولا تجسَّسوا، ولا يَغتَبْ بعضكم بعضاً، أيُحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً، فكرهتموه، واتّقوا الله، إنّ الله توّاب رحيم**»(٥٧). في هذه الآية ثلاث وصايا إلهية جاءت بصيغتي الأمر والنهي، يأمر الله المؤمنين باجتناب الظن، لأن أغلب الظن في غير محلّه. ثم ينهاهم عن التجسّس وتتبّع أخطاء الآخرين وزلاّتهم وعيوبهم. ثم ينهاهم عن ذكر الآخرين بما يكرهون. وكل وصية من هذه الوصايا قد جرت بعبارتها مجرى المثل السائر. ففي موقف ذم الظن وبيان خطورته نتمثّل بقوله تعالى: «اجتنبوا كثيراً من الظن، إن بعض الظن إثم». وفي مقام النهي عن تتبّع الناس في خلواتهم نتمثّل بقوله تعالى: «ولا تجسَّسوا» وفي حال بيان فظاعة الغيبة والنهي عنها نتمثّل بقوله تعالى: «ولا يغتب بعضكم بعضاً». كما أن الآية بوصاياها الثلاث التي انطوت عليها تجري مجرى المثل الواحد.
ويبدو بوضوح ما تتضمنه الوصية الثالثة من تمثيل وتصوير لما يلحق المغتاب من ذمّ على أفظع وجه، منها المبالغات المنفّرة التي جاءت بصيغة الاستفهام الذي يعني التقرير في قوله تعالى: «أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه» ومنها جعلُ ماهو في الغاية من الكراهية موصولاً بالمحبّة، ومنها مالم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان حتى جعل الإنسان أخاً، ومنها الإغراق في التنفير، فلم يقتصر الأمر على أكل لحم الأخ حتى جعله ميتاً. كما نلاحظ التمثيل المركّب في هذه الآية، وهو تمثيل أمرٍ حسّي ومعنويّ بصورة حسيّة.
وعندما يتأمل المرء مثل هذه الآيات يلاحظ سماتٍ عديدة تشترك في آن معاً. منها ما يتعلّق بالفكرة، ومنها ما يتصل بالأسلوب فالإيحاء والدلالة والتكثيف في العبارة، والتصوير الدقيق بأقلّ الكلمات وأبسطها، كلّ ذلك في رأيي كان من أهم الأسباب التي جعلت تلك الآيات الكريمة تجري على كل لسان، ويتمثّل بها كل عاقل.

تتفق الأمثال القرآنية والأمثال السائرة عامة في الموضوعات التي تدور حولها الأمثال من عبرة وعظة وإرشاد ومدح أو ذمّ وإقناع وحجّة. وتشمل الفضائل الإنسانية والقواعد الأخلاقية والمبادىء المثلى في الحياة الإنسانية العامة، وحقائق الوجود وإبداع الخالق تعالى جلّ شأنه.

إن الفكر العميق والبعد الإنساني الرحيب والتركيز الدقيق في كل آية من آيات كتاب الله ولاسيما الآيات التي تتضمن أمثالاً، كان له أبلغ الأثر في مسير الآيات القرآنية تلك على نحو لم يُتَحْ لكثير من أمثال العرب القديمة في اللحاق بالآيات أو مجاراتها في التبليغ والذيوع. ولله المثل الأعلى.

□ □ □

الحواشي :

١ - ابن عبد ربه، العقد الفريد (القاهرة، ١٩٦٥) ٣: ٦٣.
٢ - ابن منظور، لسان العرب:
مادة (مثل).
٣ - شيخ أمين، بكري، التعبير الفنّي في القرآن (بيروت والقاهرة: دار الشروق، ١٩٧٣) ص ٢٢٧.
٤ - حسين، محمد الخضر، بلاغة القرآن (دمشق: المطبعة التعاونية، ١٩٧١) ص ٣١ - ٣٢.
٥ - شيخ أمين، بكري، التعبيرالفني في القرآن، ص ٢٢٨.
٦ - السيوطي، الإتقان في علوم القرآن (القاهرة: مطبعة البابي الحلبي، ١٩٣٥) ٢: ١٣٢.
٧ - سورة البقرة : ٦٨.
٨ - سورة الفرقان : ٦٧.
٩ - سورة الإسراء : ٢٩.
١٠ - سورة الإسراء : ١١٠.
١١ - سورة يونس : ٣٩.
١٢ - سورة الأحقاف : ١١.
١٣ - سورة البقرة : ٢٠.
١٤ - سورة النور : ٣٥ وما بعدها.
١٥ - سورة يس : ١٣ وما بعددا.
١٦ - سورة البقرة : ٢٥٩.
١٧ - عبده، محمد، تفسير المنار، ط ٨ (القاهرة: مطبعة المنار، ١٣٤٦ هـ) ٣: ٥٢.
١٨ - سورة العنكبوت : ٤٣.
١٩ - سورة البقرة : ٢٤٩.
٢٠ - سورة البقرة : ٢٨٦.
٢١ - سورة البقرة : ٢١٦.
٢٢ - سورة الأنعام : ٦٧.
٢٣ - سورة آل عمران : ١٨٥.

٢٤ - سورة المائدة : ١٠٠.
٢٥ - سورة آل عمران : ٩٢.
٢٦ - سورة يوسف : ٥١.
٢٧ - سورة الحج : ١٠.
٢٨ - سورة هود : ٨١.
٢٩ - سورة فاطر : ٤٣.
٣٠ - سورة الإسراء : ٨٤.
٣١ - سورة الرحمن : ٢٦.
٣٢ - سورة القصص : ٧٧.
٣٣ - سورة المؤمنون : ٥٣.
٣٤ - سورة الحج : ٧٣.
٣٥ - سورة الحشر : ١٤.
٣٦ - سورة المدّثر : ٣٨.
٣٧ - سورة يوسف : ٤١.
٣٨ - سورة الرحمن : ٦٠.
٣٩ - سورة الصافّات : ٦١.
٤٠ - سورة النجم . ٥٨.
٤١ - سورة الكهف : ٨٠.
٤٢ - سورة النور : ٥٥.
٤٣ - سورة العنكبوت : ٤١.
٤٤ - سورة الشعراء : ٢٧٧.
٤٥ - سورة المؤمنون : ٩٦.
٤٦ - سورة الكافرون : ٦.
٤٧ - سورة الصفّ : ٣.
٤٨ - سورة الانشراح : ٥.
٤٩ - الجرجاني، عبدالقاهر، دلائل الإعجاز (دمشق: دار قتيبة، ١٩٨٣).
٥٠ - القزويني، محمد عبدالرحمن، التلخيص في علوم البلاغة، ط ٢ (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٣٢).
٥١ - الزمخشري، محمود بن عمر، الكشّاف (بيروت: دار المعرفة).
٥٢ - سورة الجمعة : ٥.
٥٣ - سورة الإسراء : ٢٩.
٥٤ - سورة يوسف : ٥٣.
٥٥ - ابن كثير، تفسير القرآن (القاهرة: مطبعة المنار، ١٣٤٣) ٢: ٤١٦.
٥٦ - القزويني، التلخيص في علوم البلاغة ص ١٧٨.
٥٧ - سورة الحجرات : ١٢.

لقاء مع الدكتورة..

مها عزام

أجراه: هشام العوضي - لندن

الدكتورة مها عزام باحثة سعودية مستشارة في إحدى المؤسسات الثقافية البريطانية الخاصة بشؤون الشرق الأوسط، ولها اهتمام واسع بشؤون المرأة العربية. حصلت على درجة الدكتوراه من جامعة «أكسفورد» عن بحثها «الحركات الإسلامية في مصر: ١٩٧١ - ١٩٨١»، لها عدة مؤلفات تتعلق بظاهرة التطرف الديني في الدول العربية، وخاصة مصر، وتُعدّ حالياً دراسة عن «دور المرأة العربية في الحركات الإسلامية». التقتها مجلة «آفاق الثقافة والتراث» في لندن وهي تحاضر في جامعة "SOAS" (سواس) عن «المرأة العربية ووضعها الحالي في ظل المتغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية في الوطن العربي». وأجرت معها الحوار التالي:

■ **تنتشر الجالية العربية في الغرب بأعداد كبيرة، ويشغل المثقف العربي عموماً مناصب متعددة في المؤسسات الغربية. كيف ترين وتقيّمين الدور الحقيقي الذي يمكن أن تلعبه المرأة العربية المثقفة في هذا المجال؟**

- إن لدور المرأة العربية في الغرب عدة أبعاد. فلا بد لها أولاً من أن تتقن أي عمل ترتبط به، سواء كان هذا العمل أكاديمياً أم يختص بالطب أو القانون أو غير ذلك.. فمن خلال التمرس والإتقان بشكل خاص تستطيع المرأة العربية أن تضمن الوصول إلى مستوى يجعلها مسموعة الصوت والرأي في الغرب والدول العربية، كما أنها تستطيع بوصفها امرأة ناجحة أن تحسّن التصور الغربي تجاه التقاليد وتجاه عادات مجتمعاتنا، ومتطلباته المستقبلية.

■ **تظل على الساحة إشكالية تقول: ماذا نأخذ من الغرب وماذا نترك. فكيف يمكن للمرأة العربية أن تفيد من معطيات الغرب مع الحفاظ في الوقت نفسه على هويتها العربية من الذوبان؟**

- إن الإفادة تتم من خلال المستوى الرفيع الذي وصل إليه الغرب في المعرفة التكنولوجية، وقد كان الرجل العربي والمرأة العربية منذ فترة وجيزة أبناء حضارة فاقت في وقتها حضارة الغرب، ولذا فهناك ضرورة قصوى تدفعنا لكي نفيد ونتعلم من تقدم الغرب في جميع الميادين، مع

المحافظة في الوقت ذاته على قيمنا الاجتماعية ونأخذ بالإيجابي من تراثنا الأصيل. وأعتقد أننا نستطيع تحقيق هذه الموازنة وهذا التميّز من خلال أمور أهمها المحافظة على قيم الأسرة، واحترام الكبير، وقدسية الحياة الزوجية، وتربية الأبناء. هذه أشياء نستطيع نحن النساء العربيات أن نفتخر في المحافظة عليها، وتقويتها، فالطريق إذاً للمحافظة على هويتنا يكون من خلال الانتفاع من الغرب، وفي الوقت نفسه عدم تهميش قيمنا الاجتماعية.

■ **ولكن العلاقة بين الغرب والإسلام تظل غامضة نوعاً ما، وتزداد غموضاً بمتغيرات كثيرة سياسية واقتصادية واجتماعية. هل هناك أسس معينة نستطيع من خلالها تحديد العلاقة المطلوبة بين الطرفين؟**

– يبدو أن العلاقة بين الغرب والإسلام علاقة محيرة وغير واضحة نسبياً، فهناك من جهة جهل مطبق وخوف فظيع من قبل الجانب الغربي فيما يتعلق بالإسلام، فهو يرى المسلمين أصحاب حضارة كان لها موقع الريادة في الماضي، وقد تتكرر هذه الريادة في المستقبل. وهناك على مستوى آخر اهتمام غربي متزايد بالإسلام؛ وتقدير من كلا الطرفين (الغربي والشرقي) بوجود مساحات واسعة للتعاون وتبادل المنافع. وتبقى المسؤولية في النهاية على المسلمين الذين يستطيعون المساهمة في مجال تحسين صورة الإسلام المتهم دوماً بأنه العدو البديل للشيوعية، ويستخدم الغرب هذا العداء للمحافظة على كيانه ضد من يراه مهدداً لمصالحه بل لوجوده، والمشكلة هذه تخلق بعض الفجوات والتناقضات في السياسة الغربية ذاتها، وأوضح مثال على ذلك هو استعداد الغرب لعمل (لاشيء) لوقف المجازر الجماعية في البوسنة.

■ **إن الحديث عن المرأة ذو شجون، والكتابات عن الإسلام والحركات الإسلامية كتابات طويلة لاتنتهي. وقد اخترتِ الطريق الشاق عندما جاءت دراستك حول دور المرأة في الحركة الإسلامية، فمن أين بدأت هذه الرغبة؟**

– لقد وجدت أنه من المستحيل بكوني امرأة عربية مسلمة مهتمة بالوضع السياسي في الشرق الأوسط، أن أتجاهل التغيرات الحاصلة في مجتمعاتنا والتزايد النسبي من أجل تعزيز هويتنا وتحقيق التقدم. والذي آمله من هذه الدراسة ومن غيرها من الدراسات المشابهة هو أن أوضح الأثر الحقيقي للمرأة العربية وأن أبيّن الوظيفة الأساسية التي تقوم بها المرأة في كل جوانب مجتمعاتنا، وإلى أي مدى تستطيع أن تساهم في تطوير مستقبل هذه المجتمعات.

■ **تعدّ جامعة أكسفورد من أعرق المؤسسات التعليمية في الغرب، بل وربما في العالم، وبصفتك قد درست العلوم السياسية فيها وحضّرت لنيل درجة الدكتوراه هناك، ماذا تعلمت من هذه الجامعة، وماذا تعلمت من حياتك الطويلة في بريطانيا عموماً؟**

– إن الوقت الذي قضيته في أكسفورد لتحضير رسالة الدكتوراه قد هيأ لي الفرصة كي أكون في بيئة أستطيع من خلالها الاستفادة من مساحات واسعة من العلم، وأعطاني الفرصة لتبادل وجهات النظر والإطلاع على آراء أخرى جديدة. وعلى الرغم من تركيز جامعة أكسفورد على التقاليد، فهي مؤسسة ديناميكية تحرص أن تكون على رأس المواكبين لأي تطور في العلوم

الإنسانية أو الكونية. على الصعيد العام وفّرت لي ظروف نشأتي في بريطانيا فرصة تعرف ثقافة مختلفة عن الثقافة العربية الإسلامية، وأعتقد أن هذا قد ساعدني كثيراً على تعلّم التعامل مع أفراد المجتمع الغربي لتعريفه مجتمعاتنا وذلك بأسلوب يفهمونه ويتقبلونه.

■ **لاشك أن الرأي المعتدل يصف علاقة الشرق بالغرب بعلاقة الحوار لا المصادمة. ماذا يستطيع الشرق في رأيك أن يقدّم للغرب، وكيف يمكن بالمقابل أن يفيد الشرق من الغرب؟**

- نستطيع أن نفيد كثيراً من الغرب من منطلق التقدم التكنولوجي الذي حققه، ووجود المتخصصين، وارتفاع المستويات العلمية في معظم الحقول. إن قوة الغرب الحقيقية تكمن في أنه يأخذ أي عمل يقوم به مأخذ الجد، كما أنه غير مستعد للتنازل عن أي شيء عندما يجد أن مصالحه تتعرض للتهديد. ولكن يبقى مع كل هذا ما ينقص المجتمعات الغربية من وازع روحي أو أخلاقي، إن التمييز بين الصواب والخطأ في أشياء كثيرة كتربية الأطفال، أو النواحي الجنسية، أو القضايا المتعلقة بالجرائم تظل في الغالب غير واضحة. وهنا تأتي وظيفة مجتمعاتنا بكل ما تحمله من قيم دينية وثقافية وتراثية. وعلينا ألا ننسى كذلك ونحن في مرحلة البحث عن سبل التقدم وعلى ضوء التأثير الغربي على جميع أنحاء العالم، أنّ لنا قيماً ومُثُلاً روحية يجب المحافظة عليها.

■ **يرى بعض الناس في واقع المرأة العربية شيئاً من الإجحاف فيما يختص ببعض حقوقها، إلا أن هذا موجود عند المرأة بشكل عام.. ماهي آمال المرأة العربية للخروج من هذه الدائرة.**

- إن المرأة العربية لازالت تبحث عن مجتمع تسود العدالة فيه بشكل أكثر كي تعيش وتربي أبناءها. وأعتقد أنها قادرة على الحفاظ على النمط الأخلاقي الأصيل في السلوك والتصرفات. كما تطمح المرأة العربية أن ترى نهاية لمعاملة الرجل السلبية في بعض المجالات. إن المرأة العربية تود أن تجد العدل الذي منحها إياه الشرع، ولو اضطرها ذلك للاحتكام إلى القضاء. لكنها تريد أن تجد الأمان في سعيها المشروع هذا، للمحافظة على حقوقها. فلا يزدريها المجتمع أو يحتقرها كما يحصل اليوم في بعض البلاد.

■ **الهموم إذاً موجودة، وهناك محاولات جادة للخروج من المأزق، ولكن، وكي نبدأ من نقطة محددة.. من هو المسؤول الحقيقي عن هذه الهموم؟**

- إن الهموم أو المشاكل التي تواجهها المرأة في مجتمعاتنا قد تعود في أصلها إلى قلة احترام حقوقها التي يكفلها الشرع والقانون، والمرأة لا تتمتع بحرية كاملة في ممارسة حقوقها الشرعية. ولذا، فهناك حاجة ماسة لتعليم المرأة والرجل معاً أن يحترما أولاً حقوق بعضهما بعضاً وأن يقوم كل طرف بما عليه من واجبات تجاه الطرف الآخر وأن يحترما ثانياً حقوق المجتمع وما يلزم عليهما تجاهه من واجبات. وهذه قيم لا تزرع إلا في الصغر، ومن خلال البيت والأسرة وأجهزة الإعلام وما شابهها.

■ **جاءت حركات تحرير المرأة لتشكل نقطة تحول في التاريخ المعاصر، كيف تقيّمين هذه الحركات خاصة التي انبثقت في الدول العربية وإلى أي مدى نجحت برأيك في تحقيق ماكانت تصبو إليه؟**

- لاشك أن المرأة العربية قد عاصرت تغيراً كبيراً خلال هذا القرن من منطلق تعدد نوعية التعليم، وسهولة دخولها إلى مجال العمل في كثير من الدول العربية. ولكن هذه التغيرات لا تعني بالضرورة تطور الوضع القانوني أو تحسنه

بالنسبة للمرأة المسلمة التي كانت تتمتع بوضع أرقى وأفضل في عصور مختلفة من التاريخ الإسلامي.

■ **عودة مرة أخرى إلى الغرب، هل ترينه نجح فعلاً في تحرير المرأة؟**

- لقد ذهب الغرب بعيداً في إعطائه المرأة حقوقها، وساواها بالرجل في مجال العمل، ومنحها الحرية كذلك والاستقلالية النسبية. غير أن المرأة في الغرب تواجه حيرة من منطلق عدم معرفتها بوضوح حدود هذه الحرية أو «الليبرالية»، فهي تعرف أن هناك سلبيات لما يسمى بـ «الاستقلالية»، كالوحدة، ومشاكل أخرى مرتبطة بالوقت الذي تقضيه في رعاية أولادها وتربيتهم. لقد كان ثمن «الليبرالية» المفتوحة أن فقدت المرأة في الغرب الكثير من الاحترام لكيانها ووجودها، وأدى ذلك إلى خفض قيمة وظيفتها زوجة وأماً، وهي الوظيفة المرتبطة بسعادة الرجل والمرأة وبمستقبل الأجيال الجديدة.

■ **هناك تياران فيما يخص صرعات (الموضة) اليوم في الغرب، تيار يقول بأن هذه الموضة أداة الرجل غير المباشرة للسيطرة على المرأة وإبرازها ككائن ثانوي، وتيار اخر يقول: إن الموضة فرصة ثمينة كي تكتشف المرأة ذاتها، وتحرر نفسها.. أين تقفين أنت من هذين التيارين؟**

- أعتقد أن التغير السريع الذي نراه في عالم الموضة الغربية اليوم يجعل من المرأة مجرد «أَمَة» لهذه الصرعات. صحيح أن المرأة مثلُها مثلُ الرجل يجب أن تحافظ على مظهرها، وتتزين بشكل يناسبها ويناسب من حولها، ولكن التركيز الأساسي ينبغي أن يكون المحافظة على كرامتها، وعلى قيمة أنوثتها في المجتمع.

■ **المرأة في الغرب أخذت حقوقها عنوة. أما الإسلام فقد وهبها هذه الحقوق. ما رأيك؟**

- هذا صحيح بلا شك، غير أن المرأة المسلمة اليوم تحتاج إلى المكافحة من أجل الحصول على هذه الحقوق التي أعطاها الله سبحانه وتعالى إياها. فالواجب على كلا الجنسين، الرجل المؤمن والمرأة المؤمنة، تطبيق ما شرعه الله عز وجل في كل مناحي الحياة، بالإضافة إلى تلك الحقوق الخاصة بالمرأة طبعاً.

■ **لماذا اخترت دراسة السياسة بالذات، وهل تعتقدين بأن العالم الذي يحركه الرجال سيسمح للمرأة بأن تنافسه في المجال السياسي؟**

- إذا كنا نعني بالسياسة أن تحتل المرأة مراكز قوى أو سيطرة في الحكومة فهذا شيء صعب، وخصوصاً في مجتمعاتنا. ولكن الرجل والمرأة معاً يستطيعان الارتباط بالكثير من الأنشطة السياسية الخاصة بالعمل الاجتماعي مثلاً أو التعليم والتدريس. وأنا أعتقد أنه من غير الحكمة ألا يسمح الرجل للمرأة بدخول العمل السياسي والتأثير في المجتمع، وأعتقد أنه يجب أن نعترف أن للمرأة وظيفة مهمة يمكنها أن تمارسها على المستوى الحكومي والرسمي.

■ **ماهي اهتماماتك الأخرى خارج الإطار السياسي؟**

- من الأشياء التي أوليها اهتمامي بشكل خاص «الفن» بجميع أشكاله وألوانه، وخاصة ما ارتبط بحضارة منطقتنا كفن العمارة مثلاً. وأنا أرى أن هناك أشياء كثيرة نستطيع القيام بها للمحافظة على مبانينا القديمة والعظيمة، وبناء كل ما من شأنه أن يعكس هويتنا وبيئتنا. وهناك فرصة كبيرة في الكويت الآن وهي تعيش مرحلة البناء تمكنها أن تولي اهتماماً أكبر لتشييد المباني التي تعكس - ولو على قدر بسيط - تراثنا المستمد من بيئتنا، وهذا سيساهم في إحياء طراز حضارتنا الفريد بدلاً من مجرد التقليد الفقير لما هو موجود أصلاً في الغرب. ◘

أثر الحسبة

في التنظيم العمراني للمدينة الإسلامية

الأستاذ خالد عزب
القاهرة

ابتكرت الحضارة العربية الإسلامية «نظام الحسبة» من أجل ضبط شؤون الحياة اليومية في المدن. كان من وظيفة المحتسب الإشراف على أصحاب المهن والحوانيت ومراقبتهم ليرى مدى التزامهم بالأصول المتعارف عليها، كل بحسب مقتضى مهنته والأسس الموضوعة لها، فيعاقب المخالفين وقد يحيلهم إلى القضاء. ولعل بعض مهمات البلديات في الحضارة الحديثة اليوم يدخل في مفهوم الحسبة آنذاك.

والحسبة واسطة بين أحكام القضاء وأحكام المظالم(٣). وتتفق الحسبة مع القضاء في إنصاف المظلوم وإلزام المدَّعى عليه بالأداء، وتقل عنه بعدم سماع جميع الدعاوى، كالعقود مثلاً، أو المتعلقة بالحقوق المجحودة. بينما تزيد الحسبة عن القضاء في متابعة المحتسب لتنفيذ ما يأمر به وفي إمكانه استخدام القوة خلال أداء مهمته(٤). وقد عدّ الفقهاء القضاء والحسبة من أجلّ المناصب في المجتمع المسلم «فيجب أن يكون من يلي النظر في الحسبة فقيهاً في الدين، قائماً مع الحق، نزيه النفس، عالي الهمة، معلوم العدالة، ذا أناة وحلم، وتيقظ وفهم، عارفاً بجزئيات الأمور، وسياسة الجمهور، لا يستخفه طمع، ولا تلحقه هوادة، ولا تأخذه في الله لومة لائم، مع مهابة تمنع من الإدلال عليه، وترهب الجاني لديه...»(٥).

وما يعطي هذه الولاية قوّتها وجميع الولايات الأخرى في الإسلام هو أن الدين كله لله وأن كلمة الله هي العليا حتى فيما يتعلق بالأمور الدنيوية(٦)، وبمعنى آخر فإنّ مبدأ انفصال الدين عن الدولة يتعارض مع

الأسس التي تقوم عليها تطبيقات جميع الولايات والأحكام في الإسلام.

اتسعت مهام المحتسب في المجتمع الإسلامي حتى شملت أموراً عديدة، بعضها يتعلق بالعمارة والتخطيط العمراني للمدن.

الجانب التطبيقي

إلى جانب هذه الصورة الفقهية النظرية عن الحسبة كما عرضها الفقهاء ومؤلفو السياسة الشرعية، أو الذين تعرضوا لها، هناك الجانب الحضاري التطبيقي الذي ألف بناء على الجانب الفقهي.

ويأتي كتاب «نهاية الرتبة في طلب الحسبة»(٧) على رأس المؤلفات في هذه الطريقة الخالصة للتطبيق، وهو لعبدالرحمن ابن نصر بن عبدالله العدوي الشيزري الشافعي (- ٥٨٩ هـ = ١١٩٣م)، واقتصر فيه - كما قال - على الحِرَف المشهورة.

وقد حذا حذوه - ويقال أغار عليه - كل من محمد بن محمد بن أحمد المعروف بابن الأخوة(٨) القرشي الشافعي (- ٧٢٩ هـ = ١٣٣٨م) في كتابه «معالم القربة في أحكام الحسبة». ومحمد بن أحمد المعروف بابن بسام المحتسب الذي عاش بمصر قبل سنة ٨٤٤ هـ وأطلق على كتابه اسم كتاب الشيزري نفسه، أعني «نهاية الرتبة في طلب الحسبة»، كما نقل مقدمتها بحروفها ولكنه أضاف أبواباً من خبرته في الحسبة، فأضفت على كتابه أهمية وتميزاً(٩).

وعلى كل حال، فكتاب **«نهاية الرتبة»** يعدّ الكتاب الأم للحسبة التطبيقية في مشرق العالم الإسلامي. أما في المغرب فهناك كتاب «آداب الحسبة» لأبي عبد الله بن أبي محمد السقطي المالقي (عاش في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي وأوائل القرن الثاني عشر) وهو بهذا يعدّ من أقدم ما وصل إلينا في الحسبة التطبيقية، فهو يسبق كتاب الشيزري السالف الذكر(١١).

وإذا كانت كتب السياسة الشرعية قد اهتمت بالشروط الواجب توافرها في اختيار مواقع المدن، فإنّ مؤلفات علماء المسلمين في مجال الحسبة تناولت التركيب الداخلي للمدن من تقسيم الشوارع وتوزيع المنشآت عليها والعلاقة بين هذه المنشآت والشوارع، والعلاقة بين هذه المنشآت كذلك بعضها ببعض والشروط الواجب توافرها فيها. ودخل ضمن اختصاص المحتسب الحفاظ على حق الطريق، وهو أمر أكدت عليه مؤلفات الحسبة كلها، من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الحسبة على الأسواق

فصّلت كتب الحسبة التي وصلت إلينا ما يجب أن تكون عليه الأسواق في المدن الإسلامية، وهو ما سنذكره في النقاط التالية:

التوزيع المكاني للأسواق

هناك اعتبارات عديدة لتوزيع الأسواق على مختلف مناطق المدينة الإسلامية، أهمها:

١ - حاجات السكان المتكررة والضرورية لبعض السلع تتطلب وجود أسواق معينة في جميع قطاعات المدينة دون استثناء، مع تجمّع لها في قلب المدينة، ولهذا نجد كثافة حوانيت الخبازين والحلويين والعطارين والصاغة وأهل البز والوراقين في المنطقة المركزية للمدينة وعلى امتداد شارعها الأعظم والطرق

المتفرعة عنه.

٢ - بعض الحرف تقتضي طبيعتها أن تكون أماكنها خارج المدينة أو على أطرافها بالقرب من أبوابها كمهنة القصابين، لأن هؤلاء لابد لهم من المذبح الذي يكون على الغالب، خارج المدينة، وكذلك الحال للحطابية وباعة التبن والحلفا والفخارين وباعة الحبوب والمواد الكبيرة الحجم والثقيلة، وجميع هؤلاء ترتبط تجارتهم بأطراف المدينة، ويؤثر نقلها إلى داخل المدينة على حركة المرور فيها. ومن هنا ارتبط التوزيع المكاني لأسواق هذه المواد بالأطراف(١١).

وقد صنفت الحوانيت في الأسواق تصنيفاً يمكّن المحتسب من مراقبة السوق، ويسهّل على المشتري الوصول إلى حاجته ويدفع الباعة إلى التنافس(١٢) وذلك على النحو التالي:

- التخصص

صنفت التجارات في الأسواق تصنيفاً تجارياً يعتمد على التخصص، يحدد لأصحاب كل حرفة جانباً من السوق، سواء على امتداد الشارع الأعظم أو الشوارع الجانبية المتفرعة منه، على هيئة حوانيت متراصة، تضم أصحاب كل حرفة أو تجارة. لقد كان التوجيه أن يخصص لأهل كل صنعة سوق تعرض صناعتهم فيها، «فإن ذلك لتضادهم أوفق، ولصناعتهم أنفق، وذلك مما يدفع إلى التنافس في المعروض من التجارات، كما يسهل وصول المشتري إلى حاجته بيسر وسهولة»(١٣).

وانعكس التخصص على مسميات الأحياء فسميت أسواق المدن الإسلامية بأسماء منتجاتها كسوق القصابين والخبازين والعطارين والنحاسين والصاغة. وانعكس ذلك على جميع المدن الإسلامية بلا استثناء.

- التجاور

وفي ضوء اختصاص كل سوق بسلعة معينة ظهر مفهوم التجاور في السلع المتشابهة أو السلع التي يكمل بعضها بعضاً، وكان من الطبيعي أن تتجاور أسواق الأطعمة في محيط عمراني واحد أو متقارب وكذلك الملبوسات أو المصنوعات المتخصصة لغرض معين(١٤).

- قواعد التجاور

إن تجاور الأسواق المتخصصة بعضها ببعض أو تجاورها مع المناطق السكنية تحكمه قواعد مبنية على الأصل الشرعي «لا ضرر ولا ضرار». من هذا المنطلق لا يتجاور العطارون وبائعو البز مع الخبازين أو الحدادين لعدم المجانسة من جهة ولحصول الضرر من جهة أخرى، لا يجاور الخباز باعة السمك أو أصحاب الحجامة لإمكانية التلوث، كما يجب أن يكون بائعو الأسماك بمعزل عن السوق تجنباً للروائح، ومن هنا يؤكد ابن عقيل على هذه الحقائق في وصفه لبغداد فيقول: «وكانت أسواق الكرخ وباب الطاق لا يختلط فيها العطارون بأرباب الزهائم(١٥) والروائح المنكرة، ولا أرباب الأنماط(١٦) بأرباب الأسقاط(١٧)»(١٨).

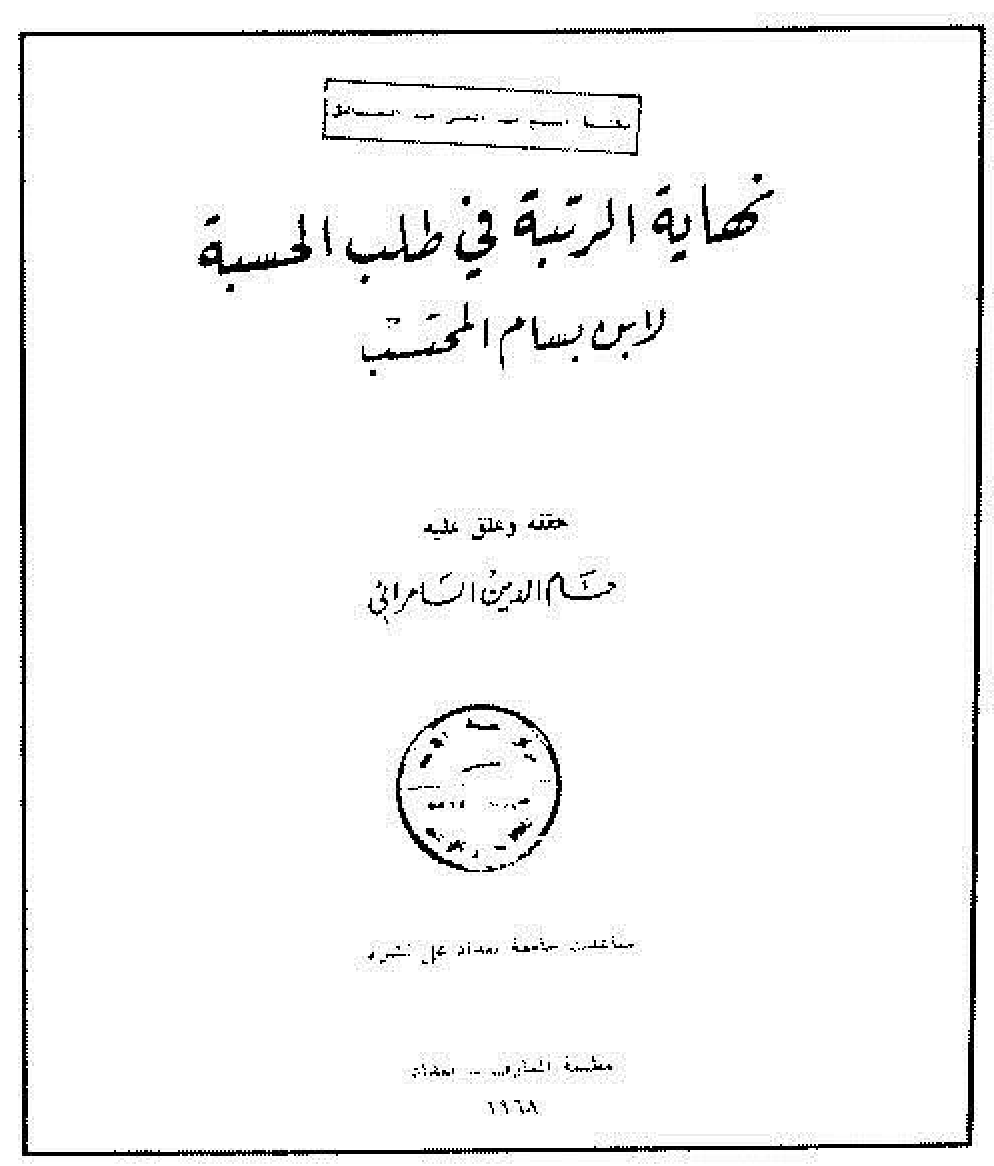
- حصر الضرر

هناك ترتيبات معينة تخص المنشآت التجارية

والصناعية التي تتسبب في حدوث الدخان أو الروائح الكريهة، أو الصوت المزعج، الأمر الذي يسبب ضرراً، ولذلك يختار لها مواضع يتجنب معها الضرر ابتداء.

ويحدث في العادة مع نمو المدينة وزيادة رقعتها أن تتأثر المناطق الجديدة بهذه النوعية من المنشآت، وهنا يقتصر عمل المحتسب على حصر مصدر الضرر وعدم توسعه، وامتداده إذ لا سبيل إلى إزالته نهائياً(١٩).

ويدخل التعرض للخصوصية وكشف الحرمات في إطار الضرر، فالأسواق بما فيها من محال تجارية تمثل أقصى درجات الضرر من حيث الخصوصية لأنها مركز خدمة عامة يتجه إليها جميع الناس، ووجود محلات في مواجهة منزل، يعرض أهله لعيون المتعاملين معها، والعاملين فيها بصفة مستمرة، وتجنباً لذلك قامت الأسواق على طول الشوارع الرئيسية المتسعة، دون الطرق الفرعية الضيقة، وتكثفت الحوانيت في مناطق تجارية وأسواق موازية ومحيطة بالشارع الأعظم وتفرعاته الجانبية مكونة منطقة تجارية على هيئة مربعات أو تربيعات تكررت نماذجها في المدن الإسلامية كما نراها في القاهرة ورشيد وحلب وفاس وبخارى على هيئة كتلة معمارية تضم مجموعة من الحوانيت، ظهورها إلى الداخل وتطل جميعها على الشوارع التي تحيط بها. مقابلة أيضاً صفوفاً أخرى من الحوانيت على الجوانب الأخرى لهذه الشوارع، وهذا التصميم يحقق مبدأ الخصوصية للسكان في المناطق المحيطة بالأسواق، ويساعد على تجنب التعرض للكشف، ولاشك أن هذا يبرز التأثير الإسلامي على هذه النوعية من المنشآت التي تشكلت معمارياً وفق حاجات المجتمع الإسلامي في إطار المبادىء الإسلامية التي تحقق النفع وتمنع الضرر(٢٠).


نهاية الرتبة في طلب الحسبة
لابن بسام المحتسب
حققه وعلق عليه
حسام الدين السامرائي
١٩٦٨

صورة كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة
« لابن بسام زيادات كثيرة في كتابه على الشيزري لأنه كان محتسباً »

مواصفات المحلات التجارية

لم يكن هناك نسق معين للحوانيت التجارية ولم يكن لها مساحة ثابتة، فقد اختلفت أشكال الحوانيت ومساحاتها تبعاً للأغراض التي تستعمل فيها، وارتبط ذلك بظروف إنشاء الحوانيت وأغراض التجارة فيها. لكنّ هناك حوانيت اشترط فيها مواصفات معينة كحانوت القصاب الذي يذبح بداخله فيشترط فيه أن يتسع لمذبح صغير كيلا يضر بالطريق والمشاة(٢١) وكذلك يشترط في حانوت الخباز ارتفاع السقف والتهوية اللازمة لإخراج الدخان(٢٢).

وقد تتطلب بعض الحرف توزيع حوانيتها على المدينة بما يضمن سهولة حصول المشترين على حاجاتهم منها كالفرانين الذين يفرقهم المحتسب على الدروب والمحال وأطراف البلد،

ولعظم حاجة الناس إليهم(٢٣)

- مراقبة الفراغات

ومن الوظائف التي دخلت ضمن اختصاص المحتسب مراقبة الحالة العامة لفراغات السوق واستخدامه بما يضمن حرية المستخدمين وصحتهم وسلامتهم وسلامة الممتلكات كأن يمنع المحتسب إخراج مصاطب الدكاكين لئلا يتضرر المارة(٢٤) ويأمر الفخارين بإزالة ما يضعونه من حوائجهم في الطرق.

- منع الأذى عموماً

كذلك كان يمنع الناس من دخول الأسواق على ظهور الدواب أو ربطها في الطرق الضيقة أو إرسالها من غير ممسك لها(٢٥) كما يمنع من يجلس في الطريق لبيع سلعة إذا كان للناس فيه ضرر(٢٦) ويأمر الحداد أن يتخذ حاجزاً لئلا يتطاير الشرر إلى الطريق. كما يضمن مسؤولية الذي يرش الماء لتسكين الغبار بألا يزيد عن الحد لئلا يتضرر منه المارة(٢٧). ويمنع المحتسب الفرانين والزجاجين من وضع الأحطاب على مقربة من النار ويمنع الحطابين من إدخال أحمال الحطب والتبن إلى السوق(٢٨).

- المصلحة العامة

ويصف ابن خلدون في مقدمته إحدى مهمات المحتسب بحمل الناس على المصالح العامة في المدينة، مثل المنع من المضاربة في الطرقات، ومنع الحمالين وأهل السفن من الإكثار في الحمل والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها، وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة(٢٩).

ويمنع المحتسب طرح النفايات والجيف في الأسواق والطرقات، كما يمنع الخضارين وغيرهم من طرح قمامتهم في الطرق(٣٠) ويمنع الخبازين من غربلة القمح في الأسواق، إضافة إلى ما سبق فقد كان المحتسب يهتم بتلوث البيئة عموماً(٣١).

وللشيزري فقرة لخص فيها جملة من وظائف المحتسب تبين دوره في المدينة الإسلامية حيث يقول: «ينبغي أن تكون الأسواق في الارتفاع والاتساع على ما وضعه الروم قديماً، ويكون على جانبي السوق إفريزان يمشي عليهما الناس في زمن الشتاء، إذا لم يكن السوق مبلطاً. ولا يجوز لأحد من السوقة إخراج مصطبة دكانه عن سمت أركان السقائف إلى الممر الأصلي، لأنه عدوان على المارة، يجب على المحتسب إزالته. والمنع من فعله، لما في ذلك من لحوق الضرر بالناس، ويجعل لأهل كل صنعة منهم سوقاً يختص بهم، وتعرض صناعتهم فيه، فإن ذلك لقصادهم أرفق، ولصنائعهم أنفق، ومن كانت صناعته تحتاج إلى وقود نار كالخباز والطباخ والحداد فالمستحب أن يبعد حوانيتهم عن العطارين والبزازين لعدم المجانسة وحصول الأضرار»(٣٢).

الحسبة على الحمامات

خضعت الحمامات كذلك لإشراف المحتسب الذي كان يتفقدها مراراً في اليوم، ويأمر أصحابها بإصلاحها ونضح مائها، وبغسلها وكنسها وتنظيفها بالماء الطاهر، وأن يفعلوا ذلك مراراً في اليوم(٣٣).

وللحفاظ على الخصوصية في المجتمع المسلم فقد خصصت حمامات للنساء، وفي بعض الأحيان أوقات معينة لهن فيها. وكان

المحتسب يتفقد أبواب حمامات النساء(٣٤)

الحسبة على مواد البناء

وإذا كان المحتسب قد نيط به الاهتمام بالأشكال الخارجية للعمارة الظاهرة للعيان، فإن واضعي كتب الحسبة من الفقهاء شددوا على أهمية قيام المحتسب بمراعاة جودة مواد البناء ومتابعته لصناعتها. وهو أمر يمس جوهر البنيان ويساعد في الحفاظ على أموال المسلمين وأرواحهم. وهذا يدل على مدى ما وصلت إليه الحضارة الإسلامية من رقي.

وتعدّ صناعة البناء من فروض الكفاية كما قال الغزالي وابن الجوزي وغيرهما لأن مصلحة الناس لا تتم إلا بها(٣٥) ولعل هذا ما دفع ابن عبدون وغيره من واضعي كتب الحسبة إلى التشديد في شروط مواد البناء فيقول ابن عبدون «أما البنيان، فهي الأكنان، لمأوى الأنفس والمهج، والأبدان، فيجب تحصينها وحفظها، لأنها مواضع رفع الأموال وحفظ المهج.. فمن الواجب أن ينظر - يقصد المحتسب - في كل ما يحتاج إليه من العدد، ومن ذلك أن ينظر أولاً في تعريض الحيطان، وتقريب الخشب الوافر الغليظ القوي للبنية، وهي التي تحمل الأثقال وتمسك البنيان. يجب أن تكون جهة ألواح البنيان في عرضها شبرين ونصف لا أقل من ذلك، ويحدد ذلك القاضي والمحتسب للصناع والبنائين، ولا يصنع حائط أقل من هذا. ويجب أن تكون الآجر وافرة، معدة لهذا المقدار من عرض الحائط. ويجب أن يكون عند المحتسب أو معلق في الجامع قالب في غلظ الآجر، وسعة القرمدة، وعرض الجائزة وغلظها، وغلظ الخشبة، وغلظ لوح الفرش، هذه القوالب مصنوعة من خشب صلب لا يستاس، معلقة في مسامير في أعلى حائط الجامع، يحافظ عليها كي يرجع إليها متى ما نقص منها أو زيد فيها، ويكون عند الصناع آخر لعملهم، وهذا من أحسن شيء ينظر فيه ويؤكده»(٣٦).

وعن مكان صنع مواد البناء يقول «ويجب أن تصنع القراميد والآجر خارج أبواب المدينة، وتكون مواضعها بالحفير، لأن تلك المواضع أوسع، فقد ضاق في المدينة المتسع ويجب أن يجيد طبخ الآجر والقراميد... ويجب أن يحدد لهم - أي المحتسب - أن يصنعوا أنواعاً من شكل الآجر.. حتى إذا طلب شيء يحتاج إليه وجد»(٣٦)

وامتدت هذه العناية إلى الجيارين والجباسين وما يقومون به من أعمال(٣٧).

ومن أجل حفظ أموال المسلمين وخصوصياتهم امتدت رقابة المحتسب إلى نجاري الضبب فيذكر كل من ابن الأخوة وابن بسام «أنه ينبغي - أي المحتسب - أن يعرف عليهم عريفاً ثقة عارفاً بمعيشتهم بصيراً بهذه الصناعة، وينشر جواسيسها. وهو باب جليل يحتاج إلى ضبطه لأن فيه حفظ أموال الناس، وصيانة حريمهم، فينبغي أن يراعى، ويحلفون بحضرة عريفهم، بما لا كفارة لهم منه، أن لا يعملوا لرجل، ولا لامرأة، مفتاحاً على مفتاح، إلا أن يكونا شريكين مشهورين ويأخذ منهم المحتسب الضمانات الكافية مع رقابته المشددة عليهم، ومن خالف ذلك أدبه المحتسب»(٣٨)

□ □ □

الحواشي

١ - الماوردي، علي بن محمد، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، (القاهرة: مطبعة الحلبي، ١٩٦٦) ص ٢٤.
٢ - آل عمران ٣ : ١٠٤.
٣ - الماوردي، مصدر سابق ص ٢٤١.
٤ - الشهاوي، إبراهيم، الحسبة في الإسلام (الكويت: مكتبة دار العروبة، ١٩٦٢) ص ٩٥.
٥ - أبو خليل، شوقي، الحضارة العربية الإسلامية (طرابلس: كلية الدعوة الإسلامية، ١٩٨٧) ص ١٦٧.
٦ - ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، الحسبة في الإسلام (القاهرة: مكتبة السعادة، ١٩٧٩) ص ٨.
٧ - الشيزري، عبد الرحمن بن نصر، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق الدكتور السيد الباز العريني، ط ٢ (بيروت: دار الثقافة، ١٩٨١).
٨ - وبالرغم من إغارة ابن الأخوة على كتاب الشيزري فمن الملاحظ على متن الكتاب أنه أضاف إليه كثيراً، كما يلاحظ أن كتابه يحتوي على سبعين باباً، ابن الأخوة، معالم القربة في أحكام الحسبة، ص ٤، ٥، ٦، ٧، تحقيق روبن لوي، نشر مكتبة المتنبي، د. ت.
٩ - لابن بسام زيادات كثيرة على الشيزري، حيث بلغت أبوابه ١١٨ باباً وليست ١١٤ كما قال الأستاذ العريني محقق نهاية الرتبة للشيزري وصاحبه كان محتسباً حيث يذكر ابن بسام الفقرة التالية «في أيام حسبتنا» في غير ما موضع كتابه، كما يبدو أنه مصري لما يلاحظ من أنه قدم ذكر موازين مصر على غيرها. ويدل كل من كتابي ابن الأخوة وابن بسام على شخصيتين متميزتين بدليل إضافات كل منهما.
ابن بسام، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ضمن كتاب، في التراث الاقتصادي الإسلامي، بيروت: دار الحداثة، ١٩٩٠ م.

١٠ - الفاسي، عبد الرحمن، خطة الحسبة (الدار البيضاء، ١٩٨٤) ص ٤٢.
١١ - السرياني، محمد، الأسواق في المدينة الإسلامية، مجلة البلديات، ع ٢٤ السنة ٦، ربيع الآخر ١٤١١ هـ = نوفمبر ١٩٩٠ م.
١٢ - عثمان، محمد عبد الستار، المدينة الإسلامية (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٨) (سلسلة عالم المعرفة؛ ١٢٨) ص ٢٥٦، ٢٥٨.
١٣ - المرجع السابق، ص ٢٥٩. وانظر أيضاً الشيزري، نهاية الرتبة، ص ١١.
١٤ - السرياني، محمد، مرجع سابق، ص٤٩.
١٥ - الزهائم : الريح المنتنة (القاموس: ز هـ م).
١٦ - الأنماط : البسط وأنواع من أكسية الصوف (القاموس: ن م ط).
١٧ - الأسقاط : الرديء من المتاع (س ق ط).
١٨ - مقدسي، جورج، خطط بغداد في القرن الخامس الهجري، ترجمة صالح العلي (بغداد: مطبوعات المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٤)، ص ٢٣.
١٩ - السرياني، محمد، مرجع سابق، ص٥٠.
٢٠ - المرجع السابق، الصفحة ذاتها.
٢١ - بروفنسال، ليفي، ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، رسالة ابن عبدون في القضاء والحسبة (القاهرة: مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٥٥)، ص ٤٤.
٢٢ - الشيزري، المرجع السابق، ص ٢٢.
٢٣ - المرجع السابق، ص ٢٤.

٢٤ - المرجع السابق، ص ١١.

٢٥ - زيادة، نقولا، الحسبة والمحتسب في الإسلام (بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦٢)، ص ٤٦

٢٦ - السنامي، عمر بن محمد بن عوض، نصاب الاحتساب، تحقيق مريزن سعيد عسيري (مكة المكرمة: مكتبة الطالب الجامعي، ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥ م) ص ٣٥٣.

٢٧ - المصدر السابق، ص ٣٤٧.

٢٨ - الشيزري، مصدر سابق، ص١٣.

٢٩ - ابن خلدون، المقدمة، تحقيق عبدالواحد وافي (القاهرة، ١٩٦١) ١: ٣٩٨، ٣٩٩. وانظر نقولا زيادة، مرجع سابق، ص ٤٨.

٣٠ - نقولا زيادة، مرجع سابق، ص ١٤٦.

٣١ - المرجع السابق، ص ١٤٥.

٣٢ - الشيزري، مرجع سابق، ص ١١.

٣٣ - المرجع السابق، ص ٨٧.

٣٤ - المرجع السابق، ص ١٠٩.

٣٥ - ابن تيمية، مرجع سابق، ص ١٣.

٣٦ - بروفنسال، ليفي، مرجع سابق، ص٣٤ - ٣٥.

٣٧ - ابن الأخوة، مرجع سابق، ص ٣٦٣.

٣٨ - المرجع السابق، ص ٢٣٦، ص ٢٣٧. ابن بسام، مرجع سابق، ص ٤٣١.

الحاسب الإلكتروني والترجمة الفورية

الدكتور - عبد جزاع العجيلي
الأستاذة - خلود عمر الرجوب
كلية العلوم - جامعة اليرموك - إربد

يهدف البحث إلى عرض اللمسات الأساسية في الترجمة التي أرسى قواعدها العلماء العرب المسلمون إبان عصر النهضة الإسلامية، ويبين البحث كذلك خطوات الاستفادة من القواعد الأساسية الموضوعة من أجل تطويع الحاسب في دور الترجمة الفورية، مما سيكون له الأثر البالغ في نقل صور آداب الأمم الأخرى وثقافاتها أسوة بما قام به السلف الصالح من أبناء هذه الأمة.

*

خلق الله آدم، وجعل من ذريته شعوباً وقبائل ليتعارفوا ويتخذ بعضهم بعضاً سخرياً، وأودع في كل أمة خصائص تميّزها من الأمم الأخرى. ومن أجل التعارف ونقل الحسن من أعمال الأمم الأخرى لابد من اتخاذ وسيلة فعالة تحقق الهدف المنشود وتنسجم معه. إن هذه الوسيلة هي ما أطلق عليها العرب اسم الترجمة. وتعدّ الترجمة النافذة التي تنقل حركة آداب الأمم الأخرى وثقافاتها وعلومها وحضاراتها.

إن الترجمة هي المرآة التي نرى من خلالها حياة الآخرين وأفكارهم ومعتقداتهم لتوظيفها في خدمة مصالح أمتنا. ولقد نقل علماء العرب المعارف من الأمم الأخرى وصهروها في بودقة تنسجم ومتطلبات العصر وتنسجم كذلك مع معتقدات الأمة بعد نبذ الغث منها والاحتفاظ بالسمين. وفي البنود اللاحقة سنلقي الضوء على حركة الترجمة إبان النهضة الإسلامية، ونتعرف أهمية الترجمة والتعريب في حياة الأمم، وأهمية اللغة العربية ودورها المميّز بين لغات الأمم الأخرى، وخصائص اللغة العربية

وملاءمتها للاستخدام في الحاسبات الإلكترونية.

حركة الترجمة في العصور الإسلامية

حفلت العصور الإسلامية بالعلم والعلماء، وتصدر العلماء العرب سدة الفكر والمعرفة في جميع أرجاء العالم في أيام اتحادهم وقوتهم، حين كان العلم للعلم والإخلاص مجبول عليه أبناء الأمة، وقد كان فضل الخلفاء والأمراء في النهضة الفكرية عظيماً إذ أعطوا نصيباً للعلم والعلماء، فأجزلوا العطاء للمفكرين ليكفوهم عناء طلب الرزق للتفرغ لما هو أسمى، وكانت الترجمة من المواضيع التي أولاها المسلمون اهتمامهم، فقد أدركوا أن استقلال الفكر والكيان خطوة لابد وأن تسبقها خطوة أخرى وهي استسقاء كل ما هو مفيد من الحضارات الأخرى وتحويره إلى ما يوافق المرتكزات الأساسية التي تقوم عليها الأمة ومن ثم ترجمتها وإطلاع طالبي العلم عليها بعد التأكد من خلوّها من أية أفكار أو معتقدات قد تشوّه الحقائق والأفكار أو تقود إلى إيجاد شريحة من العلماء في قالب عربي وجوهر أجنبي مسلوب التفكير.

أما أشهر عهود الترجمة فالعهد الأموي والعباسي، ويعدان الأهم، لأن الدولة الإسلامية كانت وليدة في ذلك الزمن من ناحية العلم والعلماء.

العهد الأموي

لم يكن الاهتمام بالترجمة قبل هذا العهد مميّزاً، فقد انصرف المسلمون إلى تركيز دعائم العقيدة الإسلامية في الدرجة الأولى.

وفي العهد الأموي ترجمت كتب الكيمياء والطب والصيدلة والنجوم من اليونانية. واستفادت الأمة من هذه الترجمات فوائد جمة كان منها، على سبيل المثال، الاطلاع على تحويل المعادن من حالة إلى أخرى وخصوصاً الذهب.

العهد العباسي

أصبحت الترجمة في هذا العهد تحظى برعاية الدولة التي ساعدت المترجمين على السفر والتنقل للحصول على الكتب الأجنبية، إضافةً إلى توفير الدعم المالي والمكافآت، وفي تلك الفترة ترجمت كتب طبية لجالينوس وأبو قراط. وفي عهد الرشيد ترجمت كتب بطليموس وإقليدس وأرسطو. كما ترجمت معظم الكتب اليونانية في الطب والصيدلة والحساب والفلك. وبهذا نهضت الأمة علمياً وفكرياً وعسكرياً وأرسى العرب القاعدة العلمية التي أتت أكلها واستفاد الغرب منها في بناء صرحهم العلمي في هذا القرن.

أهمية الترجمة والتعريب

تعدّ اللغة الوسيلة التي يتم عبرها التخاطب والتعارف. وتعدّ اللغة العربية من اللغات العظيمة. إنها بحق بودقة حضارة، وقد لاقت العديد من الحضارات، فما زادها ذلك إلا قوة وجمالاً. ويزيد أبناء الأمة فخراً أن كلام رب العالمين نزل بلغتهم. الأمر الذي دفع أصحاب المعتقدات الفاسدة للطعن في قوة لغتنا فزعموا أن اللغة العربية غير قادرة على مواكبة التطورات العلمية وعاجزة عن التعبير عن المفردات الجديدة. إن الأمر يرجع إلى ضعف أبناء الأمة في نقل التقنيات الحديثة

بأسلوب شيّق كما فعل السلف. ويحضرنا في هذا السياق أبيات حافظ إبراهيم الذي يقول:

وسعت كتاب الله لفظاً و غاية
و ما ضقت عن آي به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة
و تنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر في أحشائه الدر كامن
فهل سالوا الغواص عن صدفاتي
فلا تكلوني للزمان فإنني
أخاف عليكم أن تحين وفاتي

ومن أخطر ما يواجه الأمة فصل حاضرها ومستقبلها عن ماضيها وإشاعة استبدال اللهجات بالفصحى مما يزيد في التجزئة ويكرسها.

إن واقع الجهل العربي يحتم على أبناء الأمة الاستفادة من الحضارة الغربية وعلومها وآدابها والتمحيص فيها ونبذ ما لا يتفق وعقيدتنا وقيمنا مع المحافظة على لغتنا. وهذا الأمر لا يتأتى إلا من خلال الترجمة التي تعد الجسر الرابط بين الشعوب والحضارات المختلفة. وبدون الترجمة والتعريب فإن الأجيال القادمة ستظن أن التقنيات الحديثة لا يمكن تدريسها وتعلمها إلا بواسطة اللغات الإفرنجية التي بات الكثير من جامعاتنا ومعاهدنا تدرس بها العلوم. وبدون حركة الترجمة والتعريب سيؤدي الأمر إلى إحلال اللغات الإفرنجية محل العربية وهذا الأمر يحقق مصلحة أعداء الأمة ويمكنهم من إرساء مفاهيمهم وبث سمومهم والقضاء بالتالي على كل ما هو عربي وإسلامي. وما توصية الحاكم الفرنسي إلى جيشه الزاحف نحو الجزائر ببعيد إذ أوحى لهم: «علموا لغتنا وانشروها من أجل حكم الجزائر، فإن حكمت لغتنا الجزائر فقد حكمناها حقيقة»

أدرك الاستعمار ذلك فكان مما أوصى نابليون بعثته إلى مصر: «علموا الفرنسية ففي ذلك خدمة حقيقية لوطننا».

فوائد الترجمة

ومن الفوائد الأخرى للترجمة التي عرفها السلف مايلي:

- توفير الوقت والجهد، فالدارس باللغة العربية لا يحتاج إلى مرحلة تعلم اللغة الأجنبية ومرحلة استيعاب مفاهيمها.

- إدراك المفاهيم باللغة الأم أسرع وأفضل من إدراكها بلغة أخرى، وقد أثبتت الدراسات والبحوث أن المتعلم بلغته يفوق من يتعلم المفاهيم ذاتها بلغة أخرى.

- تؤدي الترجمة إلى تعلم الدارس المفاهيم الجديدة والحديثة باللغة العربية مما ينجي الأمة من التبعية والانقياد للأمم والحضارات الأخرى.

- عدم توافر الترجمة سيؤدي إلى استخدام لغات أجنبية في التعلم مما يؤدي بالمتعلم إلى الضياع بينها وبين اللغة الأم، فهو إما أن يصل إلى مرحلة إتقان تام للغة الأجنبية بحيث يعجز عن التعبير عن المفاهيم بلغته الأم، أو أن يصل إلى مرحلة الخلط بين اللغتين عند محاولته التعبير عن فكرة ما ولا يتقن إحداهما بصورتها الصحيحة.

٥ - يحرم المتعلم باللغات الأجنبية من الإبداع والابتكار فهو لا يلبث أن يتقن المفاهيم الأساسية اللغوية والعلمية، وإذا برفاقه الأجانب قد قطعوا شوطاً واسعاً من التعليم،

وهذا يتطلب جهداً كبيراً مما يؤدي بالمتعلم إلى الشعور بالتعب والإرهاق وكذلك يظن المتعلم العربي مع مرور الوقت أن العيب في عقلية العربي وأن الغرب أكثر ذكاءاً. ولهذا الأمر أثر كبير على استسلام الكثيرين من أبناء الأمة وخنوعهم لما يسمونه بالأمر الواقع. وكما أسلفنا فإن اللغة العربية تنضوي تحت ثنياتها معظم التقنيات وهي التي أمدت الحضارات الأخرى بالمعارف والعلوم حينما كان الناطقون بها يحكمون العالم. وقد بينت الدراسات والمقارنات أن اللغة العربية تتفوق على معظم لغات الأمم الأخرى من ناحية الترجمة وإليك الدراسة التالية التي قام بها الدكتور جبرائيل جبور الذي ترجم بعض النصوص بلغات متعددة وتوصل إلى النتائج التالية:

النص	العربية	الإنجليزية	الفرنسية	الفارسية
سورة الفيل	٢٧	٦٧	٦١	٤٨
« يوم تبلى السرائر »	٣	١٠	٧	٧
الإنجيل	أقل من ٦٠٠٠٠٠	٩٠٠٠٠٠		
تاريخ العرب	٢٣٠٠٠	أكثر من ٣٢٠٠٠		

تبين الدراسة مقدرة اللغة العربية وتفوقها في نقل المفاهيم والنظريات بعدد أقل من المفردات مقارنة مع اللغات الأخرى

الحاسوب والترجمة الفورية

يعد استخدام الحاسوب وتسخيره في خدمة المعارف من الأولويات الأساسية. وقد أدركت الدول المتقدمة أهمية الحاسوب في الترجمة، فقد قام علماؤهم بالبحث ودراسة مفردات لغاتهم وعملوا على تطوير مجموعة من الأنظمة التي تقوم بالترجمة بين لغات تلك الدول. ولكن معظم لغات الأمم الأخرى تفتقد ميزات كثيرة مقارنة باللغة العربية، أفضل اللغات على الإطلاق للاستخدام في الحاسوب، إذ يمكن ربط معظم جذور كلماتها بالمعنى العام والمعنى الدقيق.

وتنقسم الترجمة إلى الترجمة الحرفية وترجمة النصوص والعبارات؛ فالترجمة الحرفية تُعنى بترجمة المفردات، أي إيجاد اللفظ المقابل لكل كلمة أو مفردة. أما ترجمة النصوص فهي إيجاد المعنى العام لنص، أو جملة أو عبارة، وتحويل ذلك المعنى إلى اللغة المقابلة. ومن أجل تسخير الحاسوب لخدمة المتطلبات اللغوية بشكل عام والترجمة بشكل خاص لابد من توافر برامج وأدوات ذات كفاءة وميزات تناسب اللغات الحية، ومن أبرز المقومات الواجب توافرها في برامج الترجمة بين العربية واللغات الأخرى:

١ - القدرة التخزينية العالية: بحيث يمكن استيعاب جميع مفردات اللغة العربية والأجنبية المقابلة لها في المعنى.

٢ - التنفيذ السريع: تبعاً للأعداد الكبيرة من المفردات المخزنة، لابد وأن تتمتع لغة البرمجة بسرعة عالية في التنفيذ للوصول إلى المفردات المطلوبة وما يقابلها من معان.

٣ - الدقة العالية: إذ لابد من أن تكون البرامج ذات درجة عالية من الدقة بحيث

يمكن تمييز الألفاظ المتشابهة في معظم الحروف، فعلى سبيل المثال نحتاج برامج قادرة على تمييز اللفظ «سأل» عن اللفظ «سال».

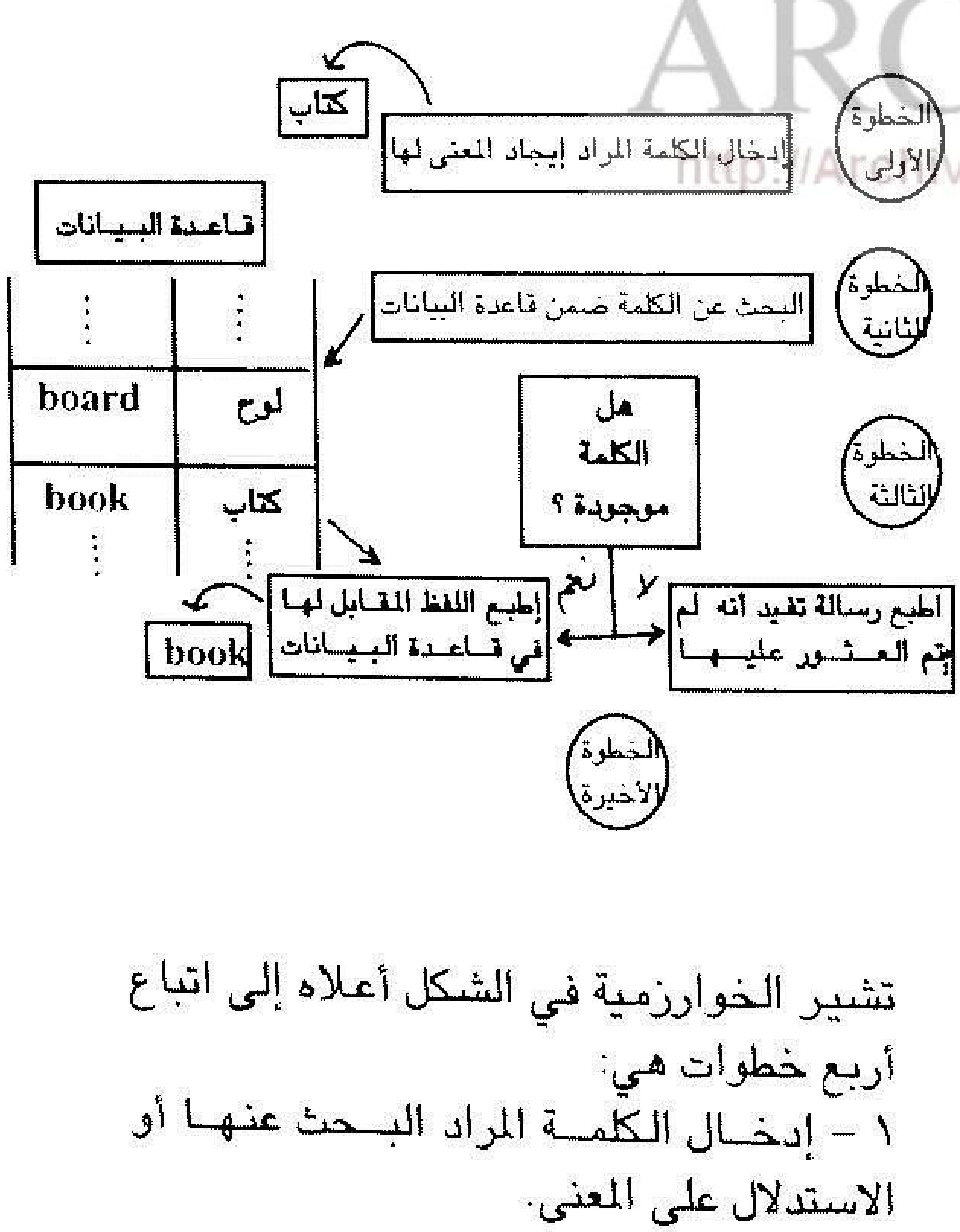
٤ – البحث التلقائي عن الحلول: من الميزات الأخرى المطلوبة، القدرة على الاستمرار في البحث، فعدم توافق اللفظ المطلوب مع اللفظ الأول المخزن لا يعني الإخفاق، إذ لابد أن تستمر البرامج بشكل تلقائي، ومباشر وسريع في فحص الألفاظ المتبقية ومقارنتها، وينتهي البحث بإحدى حالتين، الوصول للفظ المطلوب واسترجاعه، أو المرور على جميع المفردات المخزنة دون إيجاد اللفظ المطلوب وعندها تصدر إشعاراً للمستخدم أن اللفظ غير موجود وقد يكون السبب هو إدخال خاطىء للمفردة.

٥ – التركيب الخوارزمي المناسب: والتركيب الخوارزمي هو العلم الذي وضع أسسه العالم العربي المسلم الخوارزمي(٦)، الذي نبغ بعدد من العلوم أهمها الحساب والرياضيات إلى جانب الطب والصيدلة والعلوم والموسيقى وغيرها. وقد كان اسمه يستعمل للدلالة على كتب الحساب والجبر، ثم أصبح يستعمل للدلالة على طريقة رياضية هامة في الإنجليزية والفرنسية (Algorithme) وفي الإسبانية (Guarismo) وتعني الأعداد. والخوارزمية بشكل عام وضع أسس بنائية وتخطيطية للوصول لأدق النتائج المطلوبة وهذا الأمر يتم قبل الشروع في الحل. ولذا فإن البرامج المستخدمة يجب أن تتمتع بالقابلية على التشكل وفق خطة المبرمج التي يضعها لسير البحث والتنفيذ. والخوارزمية المستخدمة ذات أثر كبير على كفاءة البرنامج لما لها من فاعلية في تحديد الزمن والجهد والخزن المطلوب.

٦ – كفاءة البرامج في استخدام القيم الرمزية (غير العادية): تنقسم البرامج إلى البرامج الوصفية وهي أكثر كفاءة في التعامل مع القيم العددية، ومن أمثلتها بيسك، فورتران، باسكال. وأما النوع الآخر فهي الخوارزمية وهي الأكثر تطوراً، وتلائم القيم العددية والرمزية، ومن أمثلتها لغة الذكاء الاصطناعي برولوج.

خوارزمية الترجمة الحرفية:

تعدّ الترجمة الحرفية أمراً بسيطاً وسهل التنفيذ في لغات الذكاء الاصطناعي لأنها لا تعدو كونها عملية ربط كل لفظ بما يقابله في المعنى في لغة أخرى، وبشكل عام يمكن تمثيل خوارزمية الحل كما يلي:



تشير الخوارزمية في الشكل أعلاه إلى اتباع أربع خطوات هي:

١ – إدخال الكلمة المراد البحث عنها أو الاستدلال على المعنى.

٢ – البحث عن الكلمة ضمن قاعدة المعلومات باتباع إحدى طرق البحث والتفتيش.
٣ – وعندئذ يشعرك الحاسوب بوجود الكلمة ثم الاستدراج في الحصول على معلومات إضافية أخرى عن الكلمة وإلا فسيوافيك بعدم توافرها.

وباتباع الخطوات أعلاه نتوصل إلى الحصول على المعنى (الترجمة) المطلوب.

ترجمة النصوص

تعدّ ترجمة النصوص من الأمور المعقدة التي تتطلب دقة وجهداً كبيرين، لأنها تركز على المعنى العام للجملة بكامل مفرداتها وبشكل مترابط، فلا يمكن إغفال أية كلمة أو حرف أو رمز أو إشارة مما يقع ضمن النص. وإليك الأمثلة التالية التي توضح مفهوم ترجمة الجملة بشكل مترابط:

النص باللغة العربية	النص باللغة الإنكليزية
رجل يأتي	Man is coming
الرجل يأتي	The man is coming
الرجل يسمع	The man hears
الرجل سمع	The man heard
الرجل سمعني	The man heard me
هل سمع الرجل ؟	Did the man hear ?

مما سبق يتضح أن الترجمة النصية تتطلب مراعاة أمورمتعددة منها:

١ – موقع المفردة ضمن الجملة (فاعل، مفعول به،...).
٢ – ارتباط المفردة بأي مقطع (ني، نا، هم،...).
٣ – أدوات التعريف المستخدمة (ال، من، ما،...).
٤ – زمن حدوث الجملة.
٥ – حالة الجملة (مبني للمعلوم، مبني للمجهول).
٦ – وجود رموز وإشارات خاصة (؟، !،...).
٧ – علامات الترقيم.

*

وبعد فقد تطرق البحث إلى مفهوم الترجمة الفورية باستخدام الآلة، كما بين أثر العرب في تطور علم الترجمة خلال عصور النهضة العربية الإسلامية، وأشار من خلال عرض ميزات الترجمة ومنافعها أن إتقانها أصبح من متطلبات العصر الأساسية لمواكبة حركة التقدم العلمي والتطورات التقنية الحديثة. ولذا فإنه يوصى بضرورة تسخير الحاسوب من أجل الترجمة والتعريب.

المراجع

1 - Slocum J. (1988). Machine translation systems. Cambridge: Cambridge University Press.
2 - Nirenubury S. (1987). Machine translation: the artificial and methodologiacal issues. Cambridge: Cambridge Univ. Press.
3 - Lehrberger J. and L. Bourbeau (1988). Machine translation: linguistic characteristics of MT Systems and general methodology of evaluation. Philadelphia: Benjamines.
4 - Nagao M. (1989). Machine Translation Summit. Tokyo. Ohmsha.
٥ – معروف، نايف محمود، خصائص العربية وطرائق تدريسها، بيروت، دار النفائس.
٦ – موراني، حميد، تاريخ العلوم عند العرب، بيروت: دار المشرق، ١٩٨٩.

تنازعيٌّ... فلا يُقرأ

الدكتور غازي مختار طليمات

كلية الدراسات الإسلامية و العربية - دبي

إن صحفنا ومجلاتنا لتزخر اليوم بأدب فيه بريق وعليه رواء. غير أنه كثير التلوي والتثني. تحاول أن تقبض على شيء منه فيفرّ من بين أناملك فرار أشعة الشمس من كف المتنبي في شعْب بوّان

سُررت أيّ سرور حينما وقع بصري على العدد الثاني من مجلة (الملتقى الأدبي) التي يصدرها مسرح رأس الخيمة الوطني. ثم تضاعف سروري حينما قلّبت أوراق العدد، فأضاءت بين عيني أسماء أعرفها، وأخذتني العزة بالوطنيْن: وطني الذي فارقته وهو يهديني أدبه، ووطني الذي أقيم فيه وهو يحتضن هذا الأدب وأهله. وقلت: هاهم أولاء يقربون البعيد، برسائل لا يحملها بريد، ولا تطالبني بردود، فأي سعادة تعدل ما أنا فيه؟

ثمّ تخيّرت من بين الكتّاب كاتباً أعرفه حقّ المعرفة، وأمحضه خالص الود والوفاء، وشرعت أقرأ مقاله، وعنوانه «تنازعية التجريب في القصة القصيرة». وإني لأقرُّ أنني حينما نازعتني نفسي إلى قراءة (التنازعية) لم أكن أدري أنني أنزع إلى شَرَكٍ لا أستطيع أن أنتزع نفسي منه قبل أن تلقى النزع الأخير فيه، وإليك تأويل هذه الأحجية!!

لم أكد أقرأ فقرة منه حتى استيقظت في ذهني خاطرة نامت فيه ثلاثين سنة، وهي مقالٌ للدكتور طه حسين، عنوانه «يوناني فلا يقرأ»، نشره في كتابه «خصام ونقد» رداً على مقال غامض للناقديْن: عبدالعظيم أنيس ومحمود أمين العالم. قال طه حسين: «قرأت المقال للمرة الثالثة فلم أزددْ فهماً. ثم أجبت نفسي هذه المرة بأنّ فهمي هو الذي فُلّ حده، وأدركه الفتور والقصور، فعجز عن أن ينفذ إلى دقائق الأدب وروائع ما ينشر». وقال: «ذكر الأديبان بعض كتابنا القُصّاص على أنهم يحسنون كتابة القصة على هذا المذهب الذي صوراه في هذه الطّلّسمات والألغاز، وهم الأساتذة: محمود تيمور، وتوفيق الحكيم، ونجيب محفوظ. وأنا أزعم أن هؤلاء الكتّاب من قصاصنا المجوّدين ليسوا أحسن مني حظاً حين يقرؤن هذا الكلام». ثم راح يعلل وَسْمه المقال بهذا العنوان الغريب الذي نسجتُ مقالي على منواله، فقال: «كان المثقفون في القرون الوسطى الأوروبية يجهلون اليونانية، فإذا عثروا على ماهو مكتوب بالحروف اليونانية تركوه، وقال بعضهم لبعض: يوناني..

فلا يقرأ. ثم أصبحت هذه الجملة كناية يعبَّر بها عما يصعب فهمه »

ذكرت لك ما قال عميد الأدب العربي لتتغمد بالعفو غباء قارىء مثلي يتطفّل على مائدة النقد الحديث. فقد قرأت «تنازعية التجريب»، وأردت عقلي على الفهم، فلم يفهم، فهل لي أن أعرض عليك فقرة كاملة مما قرأت، لا عبارات متصيَّدة، قبل أن ألتمس منك ومن الكاتب العذر؟ يقول الكاتب: «ومنهم مَنْ يمارس التشكيل توظيفاً متقناً يبحث في بنية بنائية المضمون، فينطلق من مدار تنويعات شكلية، تحمل سمات الإبداع المتقن، وهي تبحث عن شكل أسمى تستقر فيه. ومدار الإيحاء هنا تفجير مكنونات جوّانية الحدث في الفسحة الزمانية والفرجة المكانية، مستنداً على إيحاء معاصر، ومعايشة متكاملة تعطي القاص فرصة لأن يخرج بالأثر من مركزية المضمون الحدثي إلى مساحة التشكيل والتنويع الخارجي، مما يجعل المضمون متقدماً على الشكل سالكاً مسار أقنية تبقى في مدار تقني واضح، يهدف حلمة العصب الحدثي في بنائية معمار القصة قبل أن يميل إلى تنويع دوائر الحدث على حساب أكاديمية الفن التناولي». انتهى كلام الكاتب. معذرة إذا سلكت سبيل الكاتب وطرحت عليه وعلى القارىء الأسئلة التالية، فإنني حائر يستعلم لا ناقد يعلّم:

ما الفرق بين البنية والبنائية؟ وإذا كان بينهما من فرق فما بنية بنائية المضمون؟ أهي الموضوع أم طريقة عرض الأفكار؟ وما مكنونات جوانية الحدث؟ أهي الدوافع التي تحرك شخوص القصة إلى فعل ما يفعلون؟ أم أن للحدث نفساً تنطوي على مشاعر غير مشاعر الأشخاص؟ وما المضمون الحدثي؟ أهو شيء آخر غير الحادثة التي تبنى منها عقدة القصة؟ وكيف يتم الخروج من مركزية المضمون إلى مساحة التشكيل والتنويع الخارجي؟ أيقوم الناقد أو الكاتب التجريبي بتجربة نووية ينجم عنها تشظي الحدث وبعثرته؟ وكيف يتقدم المضمون على الشكل بعد أن تتبعثر شظاياه؟ وما حلمة العصب الحدثي في بنائية معمار القصة؟ أهي الحبكة الفنية أم الصراع النفسي؟ وما المقصود بتنويع دوائر الحدث، وهل تحتمل الأقصوصة كل هذا التفجير وكل هذا التنويع، والمعروف أنها قد تخلو من الحدث خلواً تاماً؟

وقبل أن أجد الإجابة عن هذه الأسئلة أذكّر أخي الناقد بأن للنقد غايتين هما التفسير والتقويم، ومن الغريب أن «تنازعية التجريب» لم تفسر قصة، ولم تقوّم قاصّاً. إن الرأي النظري بلا نص كالرسم على الماء أو السباحة في الهواء، كلاهما عبث فني أو رياضة متوهمة. ونحن لانشك أن الناقد يعي ما يقول، لأنه يُجري مباضع النقد في قصة قرأها، وجسّ أعضاءها. أما خيال القارىء فكليل عاجز عن الرجم بالغيب، وعن تطبيق النقد الذي يقرؤه على نص لم يقرأه.

وإلى أن أظفر بالإجابة مشفوعة بالنصوص والشواهد أراني مضطراً إلى أن أسأل رؤساء التحرير في الصحف والمجلات كيف يتعاملون مع نقد أو أدب لا يفهم القرّاء، وهل غاية وسائل الإعلام الإفهام أم الإبهام؟ إن صحفنا ومجلاتنا لتزخر اليوم بأدب فيه بريق وعليه رواء، غير أنه كثير التلوي والتثني، تحاول أن تقبض على شيء منه فيفرّ من بين أناملك فرار أشعة الشمس من كف المتنبي في شِعْب بَوّان. فإذا أعياك الأدب استفتيت النقد فإذا الأدب والنقد توءمان،

كـلاهمـا من زئبق رجـراج، تتـراقص جـمل الناقد تحت عينيك كما تتناثر صور الأديب هبـاء في فـضـاء. فلا اسـتـقـرار لمعنى، ولا وضوح لرأي، وإنما هي أحلام تفسر أحلاماً، وضـيـاع موصول بضـيـاع، وتسويغ للتمزّق بتمزّق مثله. وإذا كنت مثلي موهون القوى ضـعـيف القلب أخـذتك غَشْيَةٌ، أو انـتـهى بك الطواف إلى الاعتراف بأنك تقرأ لقوم سبقوك فكراً وعـصـراً فـتـخـجل من بداوتك أمـام الحداثة، وتلتف بعباءتك، وترنو إلى الحضارة من بعـيـد، أو تغمض جفنيك عن الصحف والمجلات، وتعـود إلى كـامل المبرّد، وأمـالي القالي، ورسائل الجاحظ وأبي حيّان كما أوى الفتـية الذين آمنوا بربهم إلى كهفهم هاربين من زمن قصروا عنه، ومن مجتمع لامكان فيه لمنطق الحق.

وقبل أن يصرعك اليأس تسأل من تتوسم فيهم النجابة ورهافة الذوق، فإذا الحيرة هي الحـيـرة، وإذا أنت وخـاصـة الخـاصـة من المثقفين سـواء، فيهون عليك الخطب، وتتبوأ إلى جانبي مـوضـعك من قطيع القراء البلهاء غير كسير ولا حسير.

أذكر بالمعنى لا باللفظ جانباً من حوار قديم دار بين الأستاذ حافظ الجمالي وكان يومئذ رئيس اتحـاد الكتّاب العـرب في سـورية والشاعر أدونيس. قال الكاتب للشاعر:

– : أتراني قادراً على فهم ما أقرأ؟

– : وأي القـرّاء أقـدر منك على الفـهـم وأنت رئيس اتحاد الكتّاب؟

– : أيستطيع متخصص في علم الاجتماع أن يفهم الشعر؟

– : نعم، هو أحق الناس بفـهـمـه لارتبـاط الشعر بالمجتمع.

– : فلماذا لا أفهم شعرك إذن؟ انتهى الحوار أو الجـانب الذي يفـهـمـه أمـثـالي منه، وبدأ الشـاعـر يجيب إجابة من النمط الذي أعـيـا الجماليّ فـهـمه، فلم تستطع ذاكرتي الخوّارة أن تعتلق شيئاً منه.

أيها الأدباء والنقاد الملهمون، إذاً كان كبير الكتّاب لا يفقه شيئاً مما تكتبون وتنقدون فما حظُّنا نحن صـغـار القـرّاء من أدبكم والنقد؟ لقد اتهمنا عقولنا وجلدناها، ولُذنا بالمعجمات واستفتيناها، وغُصْنا في الأساطير ووعيناها، فـمـا ظفرنا من أدبكم بطائل، فـضـعـوا بين أيدينا مـفاتيح الطِّلَّسمات المغلقة، وخاطبونا على قدر عقولنا باللغة التي نعشقها ونتعبد بها في كل صلاة. ألستم قـادة الفكر ورادة الشعب؟ فابسطوا إذن بين يديه قضاياه بكلام يفـهمه، أو اندبوا من نقادكم من يفسر له مالا يفـهـم، فليس من الالتـزام الذي تُدلُّون به أن يهوّم أدبكم أو يغرق في سَراب الغموض، ولا من النبـوغ أن تخـاطبـوا الناس بألفـاظ من كـلامـهم صـيـغت على نحـو يخـرجـهـا من كـلامـهم، فـإذا رأيتم على وجوههم أمـارات التغير والتحير رميتموهم بالعته والبله، وثملتم بالتـفـرد والتـمـرد، والمجـاهرة بالمنافـرة، والإصرار على الإصر والوزر.

كان أدباؤنا يتـغنون بفـهم «إياس» وغدونا نتغنى بعد ديك الجن بـ «حنا السكران». وكان نقادنا يفسـرون المعلقات، ويشـرحون عمود الشـعـر، ويحللون نظرية النظم، ويُذيقـوننا حـلاوة الإعـجـاز، ويطلعون علينا شـمـوسـاً تضيء مـغـامض النصوص. وأصبح نقـادنا اليوم يرنقون علينا همّاً وغماً، ويحلقون فوقنا سـحـابـاً وضـبـابـاً. حـتى عنوانات المقـالات والقصـائد لاتبرأ من داء الغموض: «تنازعية التـجـريب، أوراق من دفـتـر الرمـاد، عـيـون سـردابيـة الانعـتـاق». فـتـقف على باب النص

وقوف الطفل على باب الكهف المظلم، فيخيّل إليك أنك تنظر في بئر بعيدة الغور وتحار أتُقْدم أم تحجم؟ فإذا تطامنت وولجت لم تزدد إلاّ جزعاً وهلعاً وضياعاً، إذ لا تكاد تخطو الخطوة الأولى حتى تزل قدمك، وتغوص في حمأة لزجة، أو تهيم في تيه موصول بتيه، فترتد إلى باب الكهف عجلان منفلتاً من شرك العنكبوت، هارباً إلى بؤرة الضوء بما بقي لك من صحو.

تقولون : إن أوروبا جربت الوضوح، ثم انتبذته، وجنحت إلى الغموض، ووجدت في ظله طمأنينة المتصوفة، وسكينة الزهاد. هذا صحيح. وأصحُ منه أن أوروبا قاست رجل الجرثومة، وسرعة الكهروب، ووزن المشتري، وحجم الشمس، ووضعت لكل حركة معادلة، ورسمت لكل كوكب خطّاً بيانياً. وحينما ملّت صحو العلم مالت إلى نشوة الخيال. أما نحن فلمّا نذقْ طعم الصحو، ففيم نتطوّح في مهاوي السكر؟ أنحارب تخدير الجسد بالأفيون وندعو إلى تخدير الروح بالضياع؟ أنسخر من العقل قبل أن نعقل، ومن المنطق قبل أن نتعلم القياس واللحاق بالناس؟ أنثور على حقائق العلم، ونحن ما نزال نتخبّط في بيداء الجهل؟

وحال نقدنا كحال أدبنا كلاهما ثمل مخبل.

كان نقدنا يدرس ويحلل، فيشرح الغريب والغامض، ويمحو الشبهات عن المحكمات، ويُجني قصار الأيدي جنيّ الثمر، ويأطر الأفنان العالية في رؤوس الأشجار لتصل إليها أنامل الصغار من ناشئة المتأدبين. أمّا اليوم فعلى ترائب الصحف زيّ غريب من النقد يُقصي القريب، ويبغض الحبيب، ويشوك الأنامل الغضة، ويحمل على تراثنا حملة ساخرة كاسرة، كأن همّه الأول تشريح القديم لا شرح الحديث. فالناقد الجهبذ من جهابذة اليوم إذا درس شاعراً أو قاصّاً من العصريين عطف على القدماء يسفه ماقالوا، ألا يطيب للناقد الحديث أن يبني صرح الأدب الحديث إلا من أنقاض الهياكل القديمة؟

إنه يكسر رخام القبور، ويقتلع جماجم الشعراء والأدباء من ضرائح التاريخ ليعلي برجاً كأبراج جنكيزخان، حجارته من رؤوس الفحول. وإننا بانسياقنا مع الساقة المنساقة في ركب التقليد للغرب نقطع صلتنا بالشعب، ونقدّم له شراباً لا يسيغه، ونعالج له موضوعات لا تعنيه بأساليب لا ترضيه، إذ نضع على وجوهنا أقنعة مريبة، ونرقص أمامه رقصات غريبة، فينظر إلينا بعين الخوف مرة، وبعين الازدراء أخرى، ولكنه يعدنا غرباء في كل حين. وإني لأربأ بنقدة الأدب العربي عن الغربة والتغريب، وعن قطع الجذور الضاربة في أرض العرب بغية التجمّل بالقشور التي يكسوننا بها المستشرقون والمستغربون.

وأنا أعهد صاحب التنازعية كاتباً غيوراً على التراث، نزّاعاً إلى المحافظة على الأصالة، آخذاً من كل قديم بطرف قبل أن تنتزعه من منبته العربي «تنازعية التجريب»، وتغريه المذاهب الجديدة بخضراء الدمن. إن فاشية الجديد تعدي، وعدواها سريعة السراية، شديدة الغواية، لا يبرأ منها إلا من عصم ربّك. وإذا كنت أوّجه إليه بعض العتب فليس لي من غرض سوى أن يكون فوق ما أحب لنفسي أن تكون. ورحم الله أبا ريشة القائل في الاعتذار لسعدالله الجابري بعد أن انتقده:

شهد الله ما انتقدتك إلاّ
طمعاً أن تكون فوق انتقادي

مقومات الإبداع الفني الشعري ومواصفاته

«كلما حاولت أن أتعقّب الشعر إلى حيث يسكن، هرب مني»

نزار قباني

الدكتور ياسين الأيوبي

الجامعة اللبنانية - طرابلس

الوعي في اللغة هو حفظ الشيء، بمعنييه، الماديّ (التغليفي) والمعنوي (الاستيعابي). ووعي القرآن هو فهمه وعقله إيماناً به وعملاً(١). فإن اختلّ هذا السلّم، اختل الوعي. فالوعي إذن ليس شيئاً بسيطا، وانما هو جملة أشياء أولها المعرفة، ثانيها وأهمها: العمل بهذه المعرفة.

هذا في المنطوق اللغوي. أمّا الوعي الفكري، فهو تلك الطاقة الشعورية التي تجعلنا ندرك الأشياء وأشكالها وأبعادها المختلفة، فنتخذ منها مواقف ومسالك تختلف من حالة لأخرى.

وقد يكون الوعي الفني، أقل شمولا من الوعي الفكري، إلا أنه أعمق، وأنفذ في استبطان المعاني والدلالات الخفية، والتغلغل إلى جذورها وينابيعها. من هنا تجيء الاستعانة بعلم التحليل النفسي، ونظرياته، بحثا عن "الزمن المفقود"(٢) في عملية الإبداع الفني.

وربما لا يكون الاهتداء إلى معاني الإبداع في عالم الوعي، أسهل منالا، لأن الإبداع فعل شيء لم يكن موجودا، وقل: هو إنشاؤه.

والإبداع الفني أبعد من أن يُحدّ أو يحصر بتعريف. والسبب أيضا، هاتيك القوى الخفية التي تعمل في اللامنظور واللامحسوس، وتسرّب الحياة للكائن الذي لم يكن شيئاً، فكان... فهو من جهة، مرادف لكلمة إلهام. ومن جهة أخرى، نوع من الحدس، كما هو أيضا محض ابتكار.

وقد حدّد الدكتور مصطفى سويف، معطيات الإبداع الفني، ومقوّماته، على الشكل الآتي: إن القوى التي تتفاعل فيما بينها من أجل إكمال القصيدة وإبداعها، عديدة منها: دوافع

والأهداف بأصول في الواقع الاجتماعي، والحواجز والعقبات التي يتحتم عليه عبورها كيما يصل إلى الهدف. مضافا إليها الإطار. . . كل هذه العوامل لازمة في تفسير عملية الإبداع.

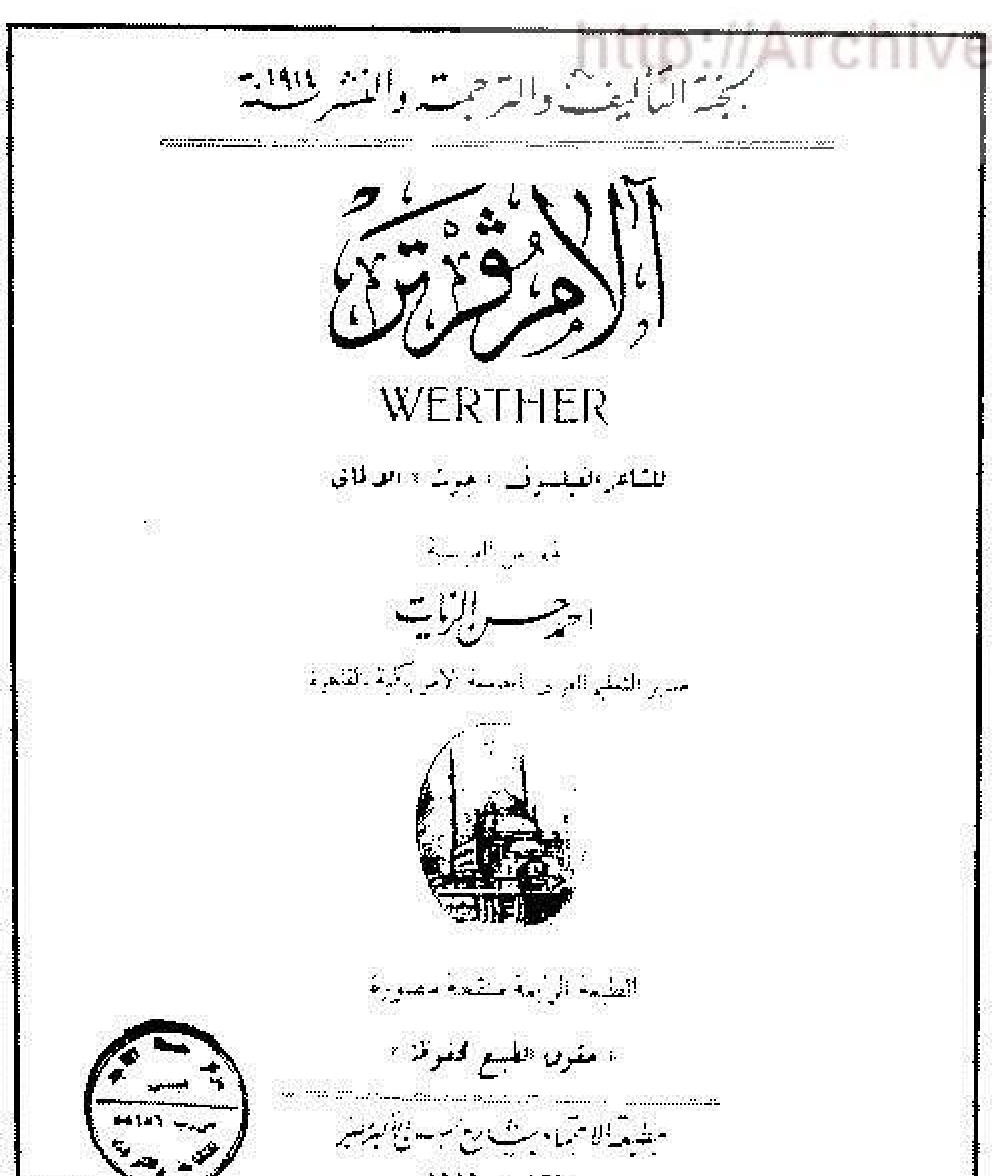
ومع ذلك يبقى هذا الأخير مفهوماً فنياً خارجاً عن التحديد، لأنه يرتبط بعناصر معنوية وروحية صرف، لا تعرّف ولا تقاس، تؤدي إلى أحاسيس وتخيلات ذاتية(٣). ولأنه أيضا، خاضع بالدرجة الأولى لهيمنة الوعي - بكل طبقاته ومظاهره - بحيث لا يبقى هناك حاجة أو رغبة دفينة إلا وتجد طريقها إلى النور، سواء أكان بصورة مباشرة من خلال تقبل الوعي لها، أم بصورة غير مباشرة عبر الصراع بين الوعي واللاوعي، فتأخذ الرغاب المكبوتة المسحوقة، في التسلل والتسرّب إلى منطقة الوعي، تارة أحلاماً سعيدة وأخرى مزعجة وثالثة أشكالاً فنية متعددة الصور والأنواع والمذاق.

وأغلب الظن أن الكبت والحرمان، وما ينتج عنهما من صراع بين الواقع الرافض، والمأمول المرتجى، أي بين الميول الغريبة، اللامألوفة من جهة، وتحقيقها واقعياً من جهة ثانية، هما اللذان صنعا الفنون ولا يزالان، بتحويل الهاجس إلى أثر فني ناطق، والحلم إلى صورة متناسقة متآلفة، والنوازع المكبوتة، المرفوضة إلى وقائع فنية معترف بها على خشبات المسرح وصالات النغم الإيقاعي الإيماني، والمقطوعات الشعرية المدوّية فوق المنابر. "فالعمل الفني، تدفع اليه أسباب هي نفسها التي تدفع إلى الحلم، ويحقق من الرغبات المكبوتة في اللاشعور، اللاوعي، ما يحقق الحلم.

وهو كذلك يتخذ من الرموز والصور ما ينفّس عن هذه الرغبات، وفي الوقت نفسه يُحدث بين هذه الرموز أو الصور علاقات بعيدة وغريبة. ومن هنا تأتي المتعة التي يجدها الفنان في إخراج عمله الفني إلى الوجود"(٤).

وأكثر ما يؤكد حقيقة الإبداع وروعتها، ما أقدم عليه بعض الكتّاب والشعراء، من ترجمة أحلامهم. ترجمة شبه تامة، هي الأعمال الفنية نفسها، كما يؤكد لنا ذلك، شاعر ألمانيا الأكبر جوته Goethe(٥).

وهذا لا يعني بالطبع أن اللاوعي، يصنع كل شيء أو يبدع كل شيء، بل يعني أنه وراء الصراع المحتدم الناشيء من الكبت الذي تقوم به الذات العليا أي الوعي الراقي في دفع النوازع النفسية المرفوضة، إلى الأسفل، فتذعن هذه الأخيرة مؤقتا، ولكنها لا تمّحي. أما الوعي، فدوره قائم على تهذيب ما يرده


لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩١٤
آلام فرتر
WERTHER
أحمد حسن الزيات

غوته شاعر ألمانية الأكبر
« ابداع في ترجمة أحلامه »

من منطقة اللاوعي، وترتيبه وتنسيقه وتحسين إخراجه، وإلباسه ما يليق به من أشكال وصور.

وبمعنى آخر، هو دور العقل المدبّر المصرّف للأشياء وفقاً لما يتاح له من قدرات ذوقية مكتسبة، وتعبيرية أصيلة، وهو دور هام لا بد منه في كل عملية فنية إبداعية.
نخلص من ذلك كله، الى أمور هامة، نجملها فيما يلي:
١ – لا بد من إيلاء الوعي بطبقاته الثلاث: العليا والدنيا والمتوسطة. المكانة الأولى في عملية الخلق الفني والابداعي.
٢ – الدوافع الأساسية التي تكمن في قلب الشاعر، لكتابة القصيدة، هي بمثابة المحرك الرئيس لعربة الشعر.
٣ – المعابر والحواجز الاجتماعية التي يتحتم على الشاعر سلوكها في إنقاذ هذه العربة الشعرية. ذلك أن أي حاجز، من شأنه قتل العناصر المبدعة البارزة، أو على العكس إذكاء نارها، فتخرج حاقدة، متفجرة، ملتهبة، على غرار ما جاء في قصيدة محمود درويش "الديوان"، "مديح الظل العالي" حيث اللهجة العنيفة والألفاظ والعبارات الشوكية النابية والانفعالات والصور الصاخبة، بأسلوب لم يطرقه درويش من قبل(٦).
٤ – هناك المقومات الثلاثة الأولية التي تؤلف هيكل الشعر ودعائمه، عنيت الموهبة والاستعدادات الفطرية لإبداع الشعر، والتجربة أو المعاناة، ثم الثقافة اللغوية والأدبية والالمام بأصول الكتابة الشعريّة.
٥ – تبقى الإشارة المهمة، إلى كيفية حدوث الإبداع الفني الشعري، هل تتم ببساطة، أو دون ذلك آلام المخاض؟

إن الإبداع الفني بعامة، يعتمد على التأليف بين الموضوع والذات، في إطار الطرفة والجدة، وحبك المحسوس باللامحسوس، وبواسطة القدرات النشطة التي تبعث على التأمل والتفكير والدراسة لتأليف مجموعة العناصر الأساسية المساعدة على عملية الابتكار الفني(٧). ولا بد من مطابقة النفس لعامل الإثارة الطارىء، أي الذي لا ينبع من ذات الفنان، لكي تتم عملية الإبداع.

وفي هذا الصدد، لا يغيب عن البال، ما يحصل لعدد كبير من الكتّاب والشعراء، من معارضة، أو تمسك بالتقاليد الموروثة لأفانين الكتابة، فيظنون أن التخلّي عن هذه القواعد يعوق عملية الإبداع. لذلك كان لا بد من التنبيه إلى أن الإبداع قليلا ما يتفق مع المحافظة على الأساليب الموروثة والأشكال المألوفة. حتى إذا أمكن للفنان "تحويل انطباعاته إلى أشكال أو أنغام أو كلمات، فانه لن يستطيع بلوغ القمم العليا بدون التحرر من الجمود والتعصب لوجهة نظر واحدة"(٨).

ولكي يبقى الفنان على موروثاته، فليختر العلوم والتجارب التي ظلت معافاة على مرّ الأيام. ويقرن إليها مخيلاته ومداركه وتجاربه الشخصية، فيتجدد الموروث وتعاد تجارب السلف لتغرس من جديد في خلايا العقل الحديث بما يناسب روح العصر(٩).
وهكذا، نرى أن العمل الفني يأتي أول ما يأتي رغبة ملحة قوية، لا يستطيع الفنان أمامها المقاومة، فيتلقى الموضوع الجمالي أو الرؤيا الأولية، فيتفتح وعيه، ويقتنصها، فيستيقظ وجدانه، ويتوتر ويستعد للعمل، ويقترن الانفعال الوجداني بالرؤية الجمالية

بتعبيرات حسية عصبية تجعله مرهف الإحساس، له حدّة الرؤيا ومقدرة على التسجيل والترجمة المتكاملة للتكوينات الداخلية للموضوع؛ تلك التي اعشوشبت عليها غلالة من الغموض، فيعمل على جلاء غموضها وإبرازها وتجسيمها، أي ينتقل من حالة الكمون إلى حالة الظهور، أو من حالة الحمل المستور، إلى الولادة الظاهرة(١٠).

يحدثنا الدكتور عز الدين إسماعيل، عن اللحظات التي تسبق ولادة القصيدة، فيجد أنها ضبابية لا تنفسح لرؤية أو استجلاء وحين يحاول الشاعر أن يستبطن مراحل ما قبل ولادة القصيدة في نفسه، فإنه يلقي بنا في هذا العالم الضبابي... حتى عندما يدفعه الفضول إلى التحري ، فانه ما يكاد يتابع هذا الخيط قليلا، حتى ينقطع به عن طرفه الآخر. "كلما حاولت أن أتعقّب الشعر إلى حيث يسكن، هرب مني". هكذا يقول نزار قباني(١١).

□□□

الحواشي :

١ - لسان العرب : وعي.
٢ - "البحث عن الزمن المفقود" : رواية شهيرة للكاتب الفرنسي مرسال بروست (- ١٩٢٢م) يبحث بطلها عن السعادة المطلقة فلا يجدها لا في الأسرة ولا في الحب ولا في العالم. فيلقاها في الفن، أي خارج الزمان. . . من مقدمة لأندرية موروا، بالترجمة العربية للرواية. بقلم الياس بديوي ، وزارة الثقافة دمشق ١٩٧٧، ١: ١١.
٣ - سويف ، مصطفى ، الأسس النفسية للإبداع الفني ، (القاهرة: دار المعارف) وفي كتابنا : "صفي الدين الحلي" دار الكتاب اللبناني شرح أوسع للإبداع ومقوماته ١٨٧ - ١٨٨.
٤، ٥ - عز الدين اسماعيل "التفسير للأدب" ٤٨. وجوته، جوهان وولفجانج (-١٨٣٢م) كاتب وشاعر الماني ترك آثاراً في الرواية والشعر والفلسفة وغيرها من أهمها "الام الفتى فرتر" ١٧٧٤ و "الديوان الغربي والشرقي" و"فاوست" ١٨١٩.
٦ - صدر ديوانه "مديح الظل العالي"، بيروت: دار العودة، ١٩٨٣، وقد حذف الشاعر منه الألفاظ النابية .
٧ - الجباخنجي، محمد صدقي ، الحس الجمالي، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٠، ص٢٨.
٨ - المرجع السابق ص ٢٩.
٩ - المرجع السابق، ص ٣٠. هذا الرأي يتفق مع راي الدكتور غالي شكري الذي لحظ ثورة رواد الشعر العربي الحديث على الاشكال العروضية الموروثة ، كما ثاروا أيضا على الفقر والتخلف المنتشرين في بلادهم لهذا جاءت أعمالهم كما يقول عبد الوهاب البياتي "ثورة كاملة في تاريخ الشعر العربي". مجلة "فصول" م١، ع٤ - ٩.
١٠ - نظمي، سالم محمد عزيز، الإبداع في علم المجال، القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٨.
١١ - إسماعيل، عز الدين، مفهوم الشعر، مجلة فصول، (١) ٤-٥.

عبدالله بن همّام السلولي
الشاعر الأموي المقل

الأستاذ وليد السراقبي
الإمارات العربية المتحدة - العين

أصاب كثير من الشعراء في العصور الأدبية كافة شهرة طبقت الآفاق، فتردّد ذكرهم على الألسنة، وعرفهم القاصي والداني، وخمد في مقابل ذلك ذكر شعراء ربما لا يقلون عنهم متانة سبكٍ، وتوقّد قريحة، وتفتيق معانٍ، وروعة تصوير.

وشاعرنا عبدالله بن همّام السلوليّ - موضوع بحثنا هذا - واحد من شعراء العصر الأموي، وهو لا يقلّ منزلة عن غيره من شعراء عصره؛ فقد عرف له النقاد مكانته، فلقّبوه بـ «العطّار» لحسن شعره، إلا أنه لم ينلْ من الاهتمام ما ناله الشعراء الآخرون، ولعل ذلك عائد إلى عوامل متعددة، اجتماعية، وسياسية، من جهة، ولقلة نتاجه الشعري من جهة أخرى، ومن هنا جاءت هذه الدراسة المقتضبة لترسم بعض ملامح فنه الشعري.

اسمه ونسبه ومولده

أجمع المترجمون له على أنه عبدالله بن همّام بن نُبَيْشة بن مالك بن الهُجَيْم بن حَوْزة بن عمرو، وقيل: عُمَير بن مُرَّة بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن(١).

والسَّلوليّ نسبةً إلى أمهم «سَلول» بنت ذهل ابن شيبان بن ثعلبة، كانت امرأة مُرَّة بن صعصعة، وأولادها منه ينسبون إليها(٢) قال ابن قتيبة: «هو من بني مُرَّة بن صعصعة بن قيس عيلان، وبنو مرَّة يعرفون ببني سلول»(٣). ونقل البغدادي في خزانته تعليقاً على بيتين لعبدالله بن همّام يقول فيهما:

إذْ ما تريني اليومَ أزجي ظعينتي
أُصَعِّدُ سيراً في البلاد وأفرعُ
فإنيَ مِنْ قومٍ سواكمْ وإنَّما
رجاليَ فهُمٌ بالحجاز وأشجعُ

فقال: «قال الأعلم: انتمى الشاعر في النسب

إلى فَهْم وأشجع، وهو من بني سلول لأنهم كلُّهم من قيس عَيْلان بن مضر»(٤). وليس من تحديد لتاريخ مولده، وكل ما وقفت عليه أنه كان في صدر الإسلام(٥)، وأنه من التابعين(٦)، وأدرك معاوية(٧) بن أبي سفيان، وعاش إلى عهد سليمان بن عبدالملك أو بعده(٨)، وبلغ سناً عالية(٩).

طبقته

وابن همام شاعر مشهود له بالشهرة والشاعرية، يسلكه ابن سلاّم في الطبقة الخامسة من الإسلاميين، ويجعله ثالث أربعة منهم(١٠)، قال فيه ابن عساكر: «شاعر مشهور من فحول الشعراء من أهل الكوفة»(١١). ولقب بـ «العطّار»(١٢) لحسن شعره. وهو إلى جانب ذلك مشهود له بالفصاحة، قال فيه المرزباني فيما ينقله عنه ابن عساكر: «وهو أحد فصحاء الكوفة المشهورين»(١٣) وقال أيضاً: «كان الفصحاء بالكوفة أربعة: عبدالملك بن عُمَير، وموسى بن طلحة، وقبيصة بن جابر الأسدي، وابن همّام السلولي»(١٤).

أخباره

يبدو من الأخبار التي تتناقلها كتب التاريخ والأدب أن ابن همّام كان على صلة وثيقة بالسلطة ورجالها آنذاك، وكانت له منزلة عظيمة عند آل حرب، حظياً فيهم(١٥) وكان هو الذي حدا يزيد بن معاوية على البيعة لابنه معاوية، فلقد أنشده شعراً يرثي فيه معاوية بن أبي سفيان ويحضّه على البيعة لابنه معاوية بن يزيد، وفيه يقول(١٦):

تعزّوا يابني حربٍ بصبرٍ

فمنْ هذا الذي يرجو الخلودا ؟

تلقّفها يزيد عن أبيهِ

وخذها يا معاويَ عن يزيدا

ويقول في قصيدة أخرى(١٧):

يزيدُ يابنَ أبي سفيانَ هل لكمُ

إلى سَنَاءٍ ومجد غير منصرمِ

اعزِمْ عزيمةَ امرٍ غبه رشدُ

قبلَ الوفاةِ، وقطِّعْ قالةَ الكِلمِ

واقدُر بقائلكمْ : خذْها يزيدُ فقل

خذها معاويَ، لا تعجز ولا تُلِمِ

فلم تزل في نفس يزيد حتى بايع لمعاوية ابنه، فعاش بعد أبيه أربعين ليلة بعد أن أتته البيعة من الآفاق(١٨).

ومن أخباره مع النعمان بن بشير أنه قال له من قصيدة(١٩):

زيادتَنا نعمانُ لا تحبِسنَّها

خفِ اللهَ فينا والكتابَ الذي تتلو

وأنتَ امرؤ حلوُ اللسانِ بليغُه

فما بالُه عندَ الزيادة لا يحلو

وقبلكَ قد كانوا علينا أئمة

يهمُّهم تقويمنا وهم عُصلُ

ينمّون دنياهم وهمُ يرضعونها

أفاويقَ حتّى ما يدره لها ثعلُ

وكان من خبر هذه الأبيات أن معاوية أمر لأهل الكوفة بزيادة عشرة دنانير في أعطيتهم، وعامله يومئذ على الكوفة وأرضها النعمان بن بشير رضي الله عنه، وكان عثمانياً، يبغض أهل الكوفة لرأيهم في عليّ كرّم الله وجهه. فأبى النعمان أن ينفذها لهم. فكلّموه وسألوه

بالله، فأبى أن يفعل، وكان إذا خطب على المنبر أكثر من قراءة القرآن. وكان يقول: لا ترون على منبركم هذا أحداً بعدي يقول: إنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم. فصعد المنبر يوماً فقال: يا أهل الكوفة. فصاحوا: ننشدك الله والزيادة. فقال: اسكتوا. فلما أكثروا قال: أتدرون ما مثلي ومثلكم؟ قالوا: لا. قال: مثل الضبع والضبّ والثعلب؛ فإن الضبع والثعلب أتيا الضبَّ في وجاره فناداياه: أبا الحِسْل! فقال: سميعاً دعوتما. قالا: أتيناك لتحكم بيننا. قال: في بيته يؤتى الحكم. قالت الضبع: إني حللت عيبتي. قال: فعلَ الحرَّة فعلت. قالت: فلقطتُ تمرة. قال: طيباً لقطت. قالت: فأكلها الثعلب. قال: لنفسه نظرَ. قالت: فلطمته. قال: بجرمه. قالت: فلطمني. قال: حرٌ انتصر. قالت: فاقض بيننا. قال: قد فعلت. قال: حدِّث امرأة حديثين، فإن أبت فعشرة. فقال عبدالله بن همّام السلولي هذه الأبيات التي تظهر لنا ماكان عليه من جرأة واضحة في توجيه النقد للسلطة ممثّلة في شخص النعمان بن بشير، ويؤكد من جهة أخرى التحام الشاعر بقومه ورغبته في المنافحة عن حقوقهم ومعرفته هو لهذه المهمة، وقيامه بأعبائها.

ومن ثَمَّ يمكن لنا أن نفسّر فعل المختار الثقفي في قطع لسان شاعرنا بالأعطيات، وذلك عندما وثب قومه على ابن همّام يتفلّتون عليه. وتناهى إلى المختار لغطهم، فخرج إليهم، وأومأ بيده إليهم: أن اجلسوا، فجلسوا. فقال لهم: إذا قيل لكم خير فاقبلوا، وإن قدرتم على مكافأته فافعلوا، وإن لم تقدروا على مكافأته فتنصلّوا، واتقوا لسان شاعر، فإنّ شرّه حاضر، وقوله فاجر، وسعيه بائر، وهو بكم غداً غادر»(٢٠).

ويبدو لنا من أخباره أنه كان رجلاً قُلّباً، يميل مع الكفّة الراجحة، فلقد كان مع آل الزبير، ينضوي تحت جناحهم، ويعيش في كنف ابن مطيع أمير الكوفة لعبدالله بن الزبير. وما إن لحقت الهزيمة بابن مطيع وظهر أمر المختار الثقفيّ حتى هجا آل الزبير، بما أوقعوا بالرعية من ظلم، وأيّد بشعره حركة المختار، وحطّ من شأن عبدالله بن الزبير، فقال:

وقد جرّب الناس آل الزُّبير

فلاقوا منَ آل الزُّبَيْر الزُّبيرا

ومن الأخبار في ذلك أن ابن همّام كان في أوّل أمره عثمانياً أموياً، وكان قد سمع أحد الموالي من الشيعة يذكر عثمان وينال منه. فغضب وعَنَّفه وقَنَّعه بالسَّوْط. وتحول الأيام، ويظهر أمر المختار ويقوى شأنه، ويرتفع معه شأن الموالي، ويصبح أبو عَمْرة كيسان صاحب شرطة المختار، وهو الذي ضربه ابن همّام من قبل. وهنا يشعر ابن همّام بالخطر الداهم، والمصيبة المحدقة، فيختفي عند عبدالله بن شدّاد الجشمي، أحد المقرّبين من المختار، فيطلب له الأمان من المختار، فيؤمنه، فيقف عبدالله بين يديه ينشده شعراً في تأييد حركته، بل يغدو ابن همّام الشاعر الممثّل لثورة المختار، التي كانت في أول أمرها انتقاماً للحسين، وإن تكن في الحقيقة محاولة شخصية للاستئثار بالسلطان»(٢١).

شعره

عرفنا أن لعبدالله بن همّام شهرة أقرَّ بها كل من ترجم له، وعرفنا أنه أُطلق عليه لقب «العطار» لحسن شعره، ومع ذلك لم يحظَ شعره بصنعة في القديم والحديث(٢٢) ولم أجد ذكراً لديوان له في كتب الفهارس. ولهذا

وجدتني مدفوعاً إلى التنقير عن أشعاره في بطون الكتب الصفراء وغير الصفراء، لألمّ شعثها، وأقدّم إلى العربية بعض مالها في رقاب الأجيال من حقوق. ولم ينقض عجبي من خلو سفر جليل كالأغاني من ترجمة مستفيضة له، اللهم إلا ما ذكر عن خبره مع النعمان بن بشير وقصيدته التي سبق لنا الوقوف على خبرها(٢٣).

وتبرز في شعره موضوعات شتّى، ففيه المدح، وفيه الفخر، وفيه الهجاء، وفيه الشعر السياسي، وفيه الشعر الاجتماعي أيضاً. ففي المدح نقف على مديحه لبني أمية بمعان لا تخرج عن المعاني المتداولة آنذاك، من حلم وأناة، وكرم، ونقاء أرومة. يقول في قصيدة يحرّض فيها يزيد بن معاوية على البيعة لابنه معاوية(٢٤).

تعزّوا يابني حرب بصـــبر
فمنْ هذا الذي يرجو الخلودا؟
لقد وارى قليبُكـم بيانـــاً
وحلماً لا كفاء له وجــــودا
وجدناه بغيضاً في الأعادي
حبيباً في رعيته حمــــيدا
يجود لها بما ملكت يــداه
ويغفر ذنبهم إلا الحــــدودا
أميناً مؤمناً لم يقض أمراً
فيوجدَ غبّه إلا رشـــــيدا
إذا ما قام ذو ثقـــةٍ تلقّتْ
أخا ثقةٍ بها صَنعاً مجـيدا

فممدوحه عالي الكعب في الفصاحة والبيان، تحبّه الرعية لرحمته بها، وعطفه عليها، كريم كالريح المرسلة لا يمنع أهله شيئاً، حليم يغفر زلات قومه اللهم إلا ماكان يوجب حدّاً.

ومن شعره في الهجاء ماقاله في هجاء «الحُمارس»(٢٥) وهو الرجل الذي كان على شرطة الكوفة للحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة المعروف بـ «القبّاع».

وكان هذا الأخير قد خرج مع ابن الأشعث، إلا أنّ يد الحجاج طالته، يقول:

أقلّي عليّ اللوم يابنة مالكٍ
وذمّي زماناً سادَ فيه الحُمارسُ
تراهُ إذا يمضي يحكّ كأنما
به من دماميل الجزيرة ناخـسُ
إذا لم يكنْ صدرَ المجالسِ سيِّدٌ
فلا خير فيمَن صدَّرته المجالسُ

ويفتخر بقومه ومالهم منْ أيّام ووقائع أبلوا فيها بلاء حسناً، ويعرِّضُ بعبدالله بن الحرِّ الجعفي، فيقول:

أتذكرُ قوماً أوجعتْك رماحـــهم
وذبُّوا عن الأحساب عند المأقطِ
تركناهم يـوم الثريّاأذلـــــة
يلوذون من أسيافنا بالعرافطِ
ويومَ شراحيل، جدعنا أنوفـكم
وليس علينا يوم ذاك بقاسـطِ
ضربنا بحدِّ السيف مفرق رأسه
وكانَ حديثاً عهده بالمواشـطِ

أما من الناحية السياسية فقد حمل عبء الدعوة إلى حكم بني أميّة، ودفعهم إلى الإمساك بزمام الأمور، والعض عليها بالنواجذ لتكون فيهم جيلاً بعد جيل. يقول:

خلافةُ ربكم حاموا عليها
إذا غمزت خُنَابِسةٌ أسودا

تعلّمها الكهولُ المردَ حتّى
تَذِلَّ بها الأكفُّ وتستقيدا

ولكن لا ينسى أن يدعوهم إلى سياسة البلاد والعباد بحسب مقتضى الحال:

فإن عَرَفَتْ لكم فتلقّفوهـــــا
ولا ترموا بها الغرضَ البعيدا
فإنْ دنياكمُ بكم اطمـــأنـتْ
فأَوْلُوا أهلَها خُلُقاً ســـديدا
وإنْ ضَجِرَتْ عليكم فاعصبُوها
عِصَاباً تُستدَرّ به شـــديدا

فهذه دعوة منه للرأفة بالرعية إذا ما ألقت بالأزمّة إلى ولاة أمورها، أما عند احمرار الحدق فلا محيد عن الشدّة التي تعيد الأمور إلى نصابها.

ويألم فيما بعد لما آل إليه أمر الرعية، فقد ضاعت حقوقها، ومُرّغ أنفها بالتراب، وأخذت تنتقل من يد كسرى إلى يد كسرى آخر دون أن تملك القدرة على الوقوف في وجه السلطة، واعتادت المهانة، وألفت الذلّ، ولكنها - في الحقيقة - تتميّز غيظاً، وتنتظر الفرصة المواتية للوثوب بولاة أمورها. يقول:

لقد ضاعتْ رعيتُكم لديكـــم
تَدِرُّون الأرانبَ غافليـــنا
إذا ما مات كسرى قامَ كسرى
فعُـدّ ثلاثة متتابـــعينا
وكلُّ الناس نحن مبايـــعوه
وإن شئتمْ فعمُّكم السمينا
فيا لهفي لو انّ لنا أنوفـــاً
ولكن لن نعود كما غَنيـــنا
إذاً لضُربتم حتى تـــعودوا
بمكّة تَلْحسون بها السخينا

حُشينا الغيظَ حتى لو شَرِبْنا
دماءَ بنَي أميّة ما روينـــا

وإلى جانب الانشغال بالحياة السياسية شغل ابن همّام بالحياة الاقتصادية أيضاً، وله فيها آراء مختلفة تعبّر عن سخطه على مافيها من انحطاط نجم عن سوء تصرّف القائمين على الأمور، فمصعب بن الزبير مَهَر سُكينة ألف ألف درهم، فأرسل عبدالله بن همّام إلى عبدالله بن الزبير يشكو هذا العبث بأموال الرعيّة فقال:

ابلغْ أميرَ المؤمنين رسالةً
من ناصح لك لا يريد خِداعا
بُضْعُ الفتاة بألف ألفٍ كاملٍ
وتبيت سادات الجنود جياعا
لو لأبي حفصٍ أقول مقالتي
وأبثّ ما أبثثكـــم لارتاعا

وقال في موضع آخر:

ولا يكونَنَّ مالُ اللّهِ مأكَلَةً
لكلِّ أزرقَ من همدانَ مكتحل

وسبق أن وقفنا عند شكايته إلى النعمان بن بشير الذي عطّل زيادة عشرة دنانير كان قد أنفذها لهم معاوية بن أبي سفيان.

«ولعل أطرف قصيدة وصلت إلينا من شعره في هذا الجانب الاقتصادي تلك اللامية التي بعث بها إلى عبدالله بن الزبير يشكو فيها عماله وأصحاب الخراج والصدقات في المنطقة الشرقية من دولته. وهي في حقيقة أمرها صحيفة سوداء سجّل فيها أسماء أولئك الولاة والعمال الذين خانوا الأمانة التي حُمّلوها»(٢٦). وفيها يقول:

يابن الزبيرِ أميرَ المؤمنين ألمْ
يبلغكَ ما فعلَ العمّالُ بالعَمَل

باعوا التُّجَارَ طعامَ الأرض واقتَسموا
صلْبَ الخراج شِحَاحاً قِسْمَةَ النُّفَلِ
اشـــــدُدْ يديك بزَيْدٍ إنْ ظفرتَ بهِ
واشفِ الأراملَ من دُحْروجةِ الجُعَلِ

وإذا كان شعره السياسي شعراً متقلباً بتقلب مراكز السلطة والقائمين عليها، ويمكن وصفه بالنفاق السياسي كما رأينا سرعة انتقاله من مدح لهذا الحاكم إلى مدح غيره، فإن شعره يتسمُ بوشاح الصدق إذا ماكان موضوعه الحديث عن الظلم الاجتماعي، وتردي الحالة الاقتصادية. وهنا نرى ابن همّام ينقد أعمال الولاة نقداً فاضحاً، لا يبالي بالنتيجة، وربما كان مطمئناً إلى أن أحداً لن يستطيع أن يمدَّ إليـه يد الأذيّة مـادام لايذكـر رأس السلطة بشيء.

ويتسم شعره بالحماس العاطفي المتدفق، ولهذا السبب نفتقد القصائد الطويلة، ونقف على غلبة المقطَّعات القصيرة في شعره، إذ القصيدة لديه لا تعدو كونها دفقة شعورية تعتمل بها نفسه، ويضطرب بها قلبه، فتجري على لسـانه فـإذا مـا مـدح لا يدع زيادة لمستزيد، وإذا هجا يوشك أن يجتثَّ المهجوّ من جذوره فيجعله كأعجاز نخل منقعر، وإذا ما عاتب قومه أو عرض لما حاق بالرعيَّة من ظلم فـاض شعـره بنفحـة إنسـانيـة تلبس النفوس وشاح الأسى والحزن، وتذوب عطفاً وحناناً.

ولغلبة المقطعات الشعرية خلا شعره من المقدِّمـات التـقليـدية التي كـان الشعـراء يلتزمونها في الغالب، اللهمَّ إلا تلك القصيدة العـينيـة التي بدأها بمقدمـة من الغـزل التقليدي، وتحدَّث بها عن الهجران والوشاة وأثرهم في فصم العلائق، ثم يلتمس لنفسه ما يخفف به غلواءه، فالهجران أمر طبيعي، وتحوّل الأحبَّة في غاية البداهة. يقول فيها:

الا انتســـاتْ بالودِّ منكَ وادبرتْ
معالِنةً بالهجرِ امُّ مطيـــعِ
وحمّلَها واشٍ ســـعَى غيرَ مؤتَلٍ
فأُبْتَ بهمٍّ في الفؤادِ وجيـعِ
فخفِّضْ عليكَ الشأنَ لا يرْدِك الهوى
فليسَ انتقالُ خلَّةٍ ببديـــعِ

فكأنه يجعل من الهجر والوشاية - كما يرى الدكتـور يوسف خليل - تفسـيراً أو تعليلاً أو نوعاً من الاعتذار لموقفه السياسي السابق من المختار، وكأنه يقول له: لم أبعد عنك لأنني أكرهك أو أبغضك، وإنما أنت الذي تناءيت عني حين بدأتني بالهجر، وإنَّ ما بلغك عني ليس إلا وشاية حملها إليك واشٍ سعى بيننا فأفسد عليَّ وعليك.

وإلى جانب هذه القصيدة هناك قصيدة أخرى لا تخرج عن نهج الشعراء عامة، من ابتداء بمطلع غزل تقليدي يتحدَّث فيه عن الغواني وذكرياته معهنَّ على الرغم من أن الشيب قد علا مفرقه، يقول:

جعلتَ الغوانيَ من بالكـــا
ولم ينهكَ الشيبُ عن ذلكا
على حينَ كانَ الصِّبا شانئاً
واقصرَ باطلُ أخدا نكـــا

ثم يصل إلى الحديث عن الغربة التي أخذ يحسّ بها بعد أن غدا وحيداً، وعن رحلته نحو الممدوح على ناقة أدماء، وإناخته ببابه:

و يَممتُ أبيضَ ذا ســورةٍ
علا ذروةَ المجد والحــاركا
أجوبُ إليهِ أديمَ النهـــا
رِ ، وأدَّرعُ الأسْوَدَ الحالكا
بأدماءَ قد ضمَّ منَها السِّفا
رَ ، وأفنى سَنَاماً لها تامكا

وابن همَّام في شعره متين العبارة، قويّ السبك فلا إحالة في المعاني، ولا التواء في التركيب، ولا تقديم أو تأخير يحملان على التمحُّل في التأويل. ويخلو كذلك من الصنعة والتكلف، فهو - كما قلنا من قبل - شاعر الدفقة الشعورية، والإحساس العفوي الذي يغدو في لمح البصر مقطَّعة شعرية تعكس الانفعالات الداخلية للشاعر.

وفاته

تعدَّدت الأقوال في تاريخ وفاته، فلا يمكن الركون إلى رأي قاطع لدى القدماء أو المحدثين، وليس من سبيل سوى الظن والتخمين، والاستدلال بقرائن التاريخ. فابن كثير في البداية والنهاية(٢٧) يسلكه في وفيات سنة اثنتين وسبعين للهجرة، والصفدي في الوافي بالوفيات(٢٨) يجعل وفاته في حدود ثمانين للهجرة. وحدَّدَ العلامة المرحوم خيرالدين الزركلي وفاته في سنة إحدى ومئة للهجرة(٢٩)، وذكر الدكتور ياسين الأيوبي في كتابه «معجم الشعراء في لسان العرب»(٣٠) أنه توفيَ سنة خمس ومئة للهجرة.

□ □ □

الحواشي

١ - جمهرة أنساب العرب، ص ٢٧١، وتاريخ مدينة دمشق ٣٩: ٣٠٤، والخزانة ٣: ٦٣٧
٢ - الخزانة، ٢: ٦٣٧ - ٦٣٨.
٣ - الشعر والشعراء، ٢: ٦٥٥.
٤ - الخزانة، ٣: ٦٣٨.
٥ - تاريخ مدينة دمشق، ٣٩: ٣٠٤.

٦ - الخزانة، ٣: ٦٣٩
٧ - الأعلام، ٤: ١٤٣.
٨ - الأعلام، ٤: ١٤٣.
٩ - تاريخ مدينة دمشق، ٣٩: ٣٠٥.
١٠ - طبقات فحول الشعراء، ص ٥٩٣.
١١ - تاريخ مدينة دمشق، ٣٩: ٣٠٤.
١٢ - سمط اللآلىء، ص ٦٨٣، والخزانة ٣: ٦٣٨.
١٣ - تاريخ مدينة دمشق، ٣٩: ٣٠٤.
١٤ - المصدر نفسه، ٣٩: ٣٠٦.
١٥ - المصدر نفسه.
١٦ - أنساب الأشراف، ٤: ٢٩١.
١٧ - نقائض جرير والأخطل، ص ٣ - ٥.
١٨ - تاريخ مدينة دمشق، ٣٩: ٣٠٧.
١٩ - الأغاني، ١٦: ٣١.
٢٠ - تاريخ مدينة دمشق، ٣٩: ٣١٠.
٢١ - حياة الشعر في الكوفة ص ٣٨٨.
٢٢ - وقفت بأَخَرةٍ على مختارات من شعر عبدالله بن همام السلولي، نشرها علامة الجزيرة العربية الشيخ حمد الجاسر في مجلة «تاريخ العرب» السنة الأولى، الجزء الأول، ص ٣٩ - ٥٤، والجزء الثاني، ص ١٥٧ - ١٧١، والجزء الثالث ٦٤٨ - ٦٦١. وهذه المختارات لا تشكل مجموعاً شعرياً للشاعر، فقد استدركت عليها عدداً من المقطعات أخلّت بها المختارات.
٢٣ - الأغاني، ١٦: ٣١.
٢٤ - انظر خبرها في طبقات فحول الشعراء، ص ٦٢٦.
٢٥ - في الخزانة، ٣: ٦٣٨: «الفُلافس».
٢٦ - حياة الشعر في الكوفة، ص ٤١٥.
٢٧ - البداية والنهاية، ٨: ٢٨.
٢٨ - الوافي بالوفيات، ص ١٧.
٢٩ - الأعلام ٤: ١٤٣.
٣٠ - معجم الشعراء في لسان العرب، ص ٢٦٧.

تَصْحِيح نَصّ تُراثي

الدكتور مازن المبارك

كليـة الدراسـات الإسـلامـيـة و العـربيـة - دبي

«المباحث المَرضيّة المتعلّقة بـ (مَن) الشرطيّة» رسالة صغيرة للإمام جمال الدين أبي محمد عبدالله ابن يوسف المشهور بابن هشام صاحب «مغني اللبيب» ضمّنها مسائل وقع البحث فيها بينه وبين تقيّ الدين أبي الحسن عليّ بن عبدالكافي السّبكي الشافعي والد تاج الدين السبكي والمتوفّى سنة ٧٥٦ هـ.

المسألة الأولى سؤال الإمام السبكي عن سبب إجماع النحاة على اسميّة (مَن) الشرطيّة وحرفيّة (إنْ) الشرطية، مع أنهما متساويتان في المفهوم، وجواب ابن هشام عن ذلك.

المسألة الثانية سؤال الإمام السبكي عمّا احتجّت به الحنفيّة على أن قراءة الإمام هي للإمام والمأموم، وأن لا قراءة على المأموم من قوله صلى الله عليه وسلّم «من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة»، وجواب ابن هشام.

المسألة الثالثة سؤال الإمام أبي حنيفة وخلاصته أن من قال: «أيّ عبيدي ضربك فهو حرّ» فإنه إذا ضرب الجميع عتق(١) الجميع. وأن من قال: «أيّ عبيدي ضربته فهو حرّ» فإنه إذا ضرب هو الجميع لم يعتق إلاّ واحد منهم. وتوجيه الإمام ابن جني (- ٣٩٢ هـ) لذلك وتخريجه إيّاه، وجواب ابن هشام وشرحه للمسألة.

وقد كنت حقّقت هذه الرسالة معتمداً نسخة وحيدة هي نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق، نشرتها دار ابن كثير بدمشق وبيروت سنة ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٧ م.

وبعد خمس سنوات تفضّل الصديق الدكتور عوض حمد القوزي، أستاذ العربية في جامعة الملك سعود بالرياض، فأهداني شريطاً مصوّراً (فيلم) لمجموع مخطوط تضمّه مكتبة المتحف البريطاني، وكان من بين الرسائل التي ضمّها المجموع رسالة «المباحث المرضيّة» لابن هشام. وتبيّن لي بعد قراءة الرسالة في نسخة المتحف البريطاني ومقابلتها بنسخة الظاهرية المعتمدة في التحقيق

السابق أن في النسخة الجديدة زيادات لابدّ من إضافتها. ورأيت تأجيل إثبات الفروق والزيادات في المسألتين الأولى والثانية إلى الطبعة الجديدة للرسالة، وهي فروق وزيادات لا تؤثر في سياق ولا تعوق فهم معنى، وأما المسألة الثالثة ففيها إضافة لابدّ من المبادرة إلى نشرها، ذلك أنه سقط من نسخة الظاهرية اسم النحويّ أبي عبدالله محمد بن عمرون لمشابهة اسمه لاسم أبي عبدالله محمد بن مالك، مما جعل الناسخ يسهو فيسقط السطر الذي بين: أبي عبدالله محمد... وأبي عبدالله محمد، والأول هو ابن عمرون والثاني هو ابن مالك، فأصبح كلام ابن عمرون منسوباً إلى ابن مالك، وهو قفز في النظر يعرفه الذين يمارسون التحقيق والطباعة ويقعون في مثله عند تشابه كلمتين (انظر ذلك في الصفحتين المصوّرتين).

وأثبت فيما يلي صورة لصفحة نسخة الظاهرية وصورة لصفحة نسخة المتحف البريطاني، وهما الصفحتان اللتان تضمّنتا المسألة الثالثة، ثم أثبت النصّ والحواشي المتعلّقة بتحقيقه جاعلاً الحرف (ظ) رمزاً لنسخة الظاهرية، والحرف (م) لنسخة المتحف البريطاني. وأسأل الله سبحانه أن يهيّء لي إصدار طبعة جديدة للرسالة بتمامها، والشكر للصديق الدكتور القوزي صاحب الفضل في هذا التصحيح، ولمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث صاحب الفضل في نشره في مجلّته.

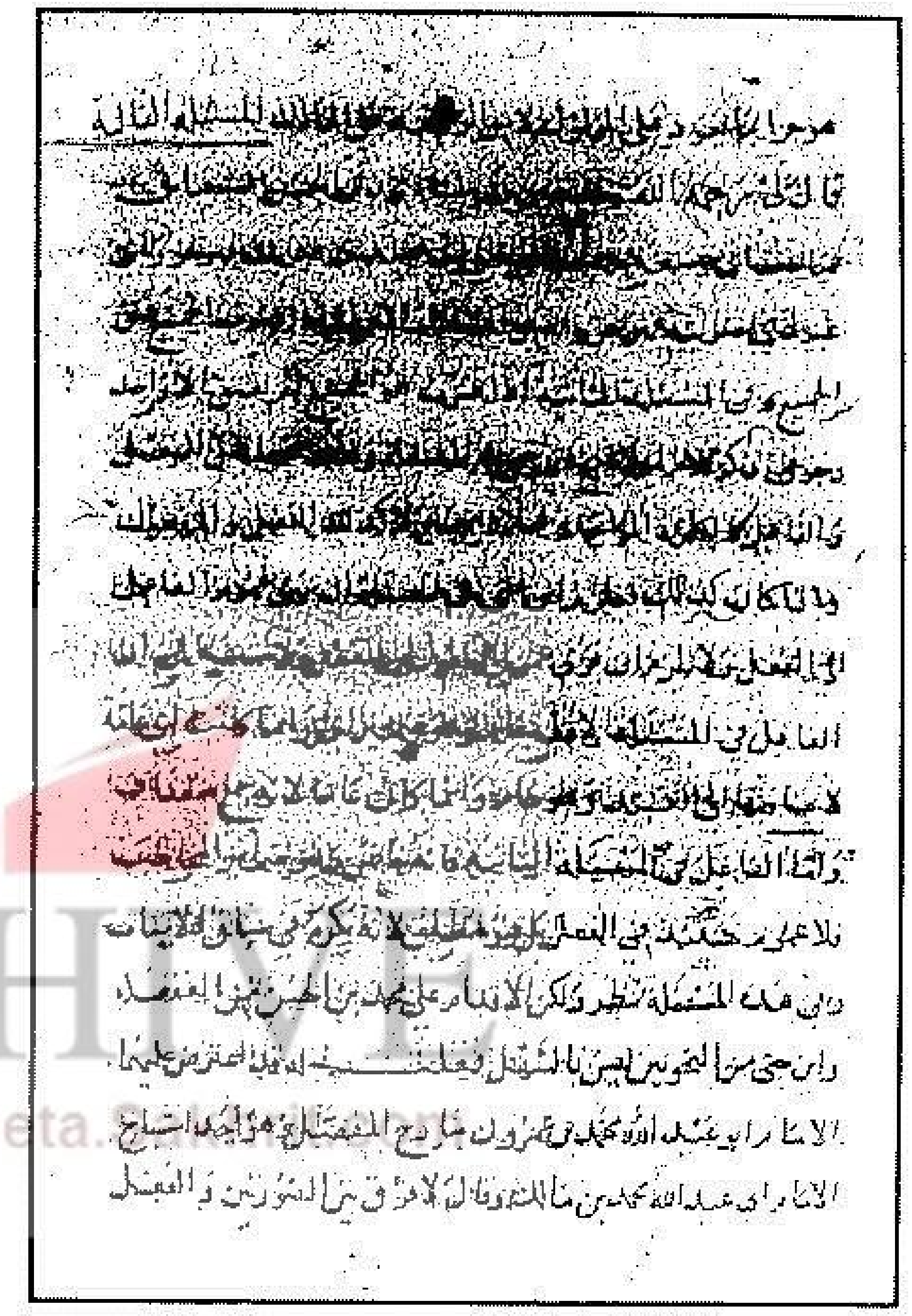
المسألة الثالثة

قال(٢) [لي](٣) رحمه الله [تعالى](٤) - وقد جرى ذكر محمد بن الحسن الشيباني(٥) صاحب أبي حنيفة(٦) رحمهما الله تعالى(٧): «أيّ عبيدي ضربك فهو حرّ، وأيّ عبيدي ضربته فهو حرّ، وأنه(٨) في المسألة(٩) الأولى إذا ضرب الجميع عتق(١٠) الجميع، وفي المسألة الثانية إذا ضرب هو الجميع لم يعتق إلا واحد [منهم](١١): وجرى ذكر كلام أبي الفتح بن جنّي(١٢) في المسألة وأنه وجّهها بأن الفعل والفاعل كالكلمة الواحدة لتلازمهما، ولا كذلك الفعل والمفعول، وإذا كان كذلك [فيلزم ابن جنّي في المسألة أن يسري](١٣) عموم الفاعل إلى الفعل، ولا يلزم أن يسري(١٤) عموم المفعول إلى الفعل(١٥)، ولا شبهة في أن الفاعل في المسألة الأولى عامّ وهو ضمير«أيّ»، وإنما كانت [أيّ](١٦) عامّة لإضافتها إلى العبيد وهو عامّ، وإنما كان عاماً لأنه جمع مضاف، وأما الفاعل في المسألة الثانية فإنه خاصّ، وهو ضمير المخاطب، فلا عموم حينئذٍ في الفعل، بل هو مطلق لأنه نكرة في [سياق](١٧) الإثبات. وفي هذه المسألة نظر، لكنّ الإقدام على محمد بن الحسن(١٨) من الفقهاء، وابن جنّي(١٩) من النحويين ليس بالسّهل.

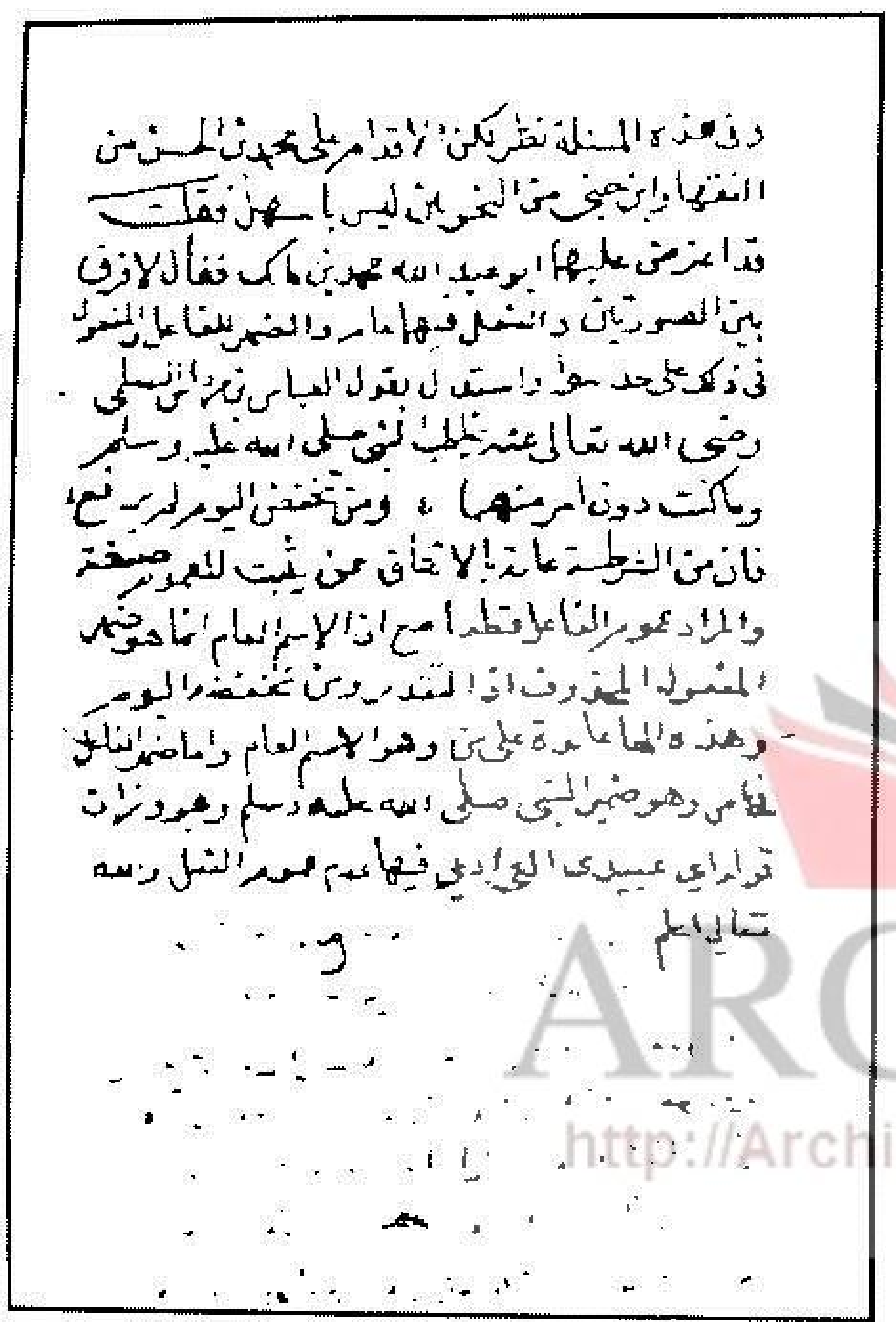
فقلت [له](٢٠): قد اعترض عليهما [الإمام](٢١) أبو عبدالله محمد [بن عمرون(٢٢)، شارح المفصّل: وهو أحد أشياخ الإمام أبي عبدالله محمد](٢٣) بن مالك(٢٤). وقال(٢٥): لا فرق بين الصورتين، والفعل فيهما(٢٦) عامّ، والضمير للفاعل والمفعول في ذلك على حدٍّ سواء، واستدلّ بقول العبّاس بن مِرْداس السُّلَمي(٢٧) رضي الله [تعالى](٢٨) عنه، يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم:

وما كنتُ دون امرىءٍ منهما ... ومَن تَخفضِ اليومَ لا يُرفعِ (٢٩)

فإن (مَن) الشرطيّة عامّة بالاتفاق ممن يثبت للعموم صيغة، والمراد عموم الفعل(٣٠) قطعاً مع أن الاسم العام إنما هو ضمير المفعول المحذوف إذ التقدير: ومن تخفضه اليوم، وهذه الهاء عائدة على «مَن» وهو الاسم العام، وأما ضمير الفاعل فخاصّ، وهو ضمير النبي صلى الله عليه وسلّم، وهو(٣١) وزان قوله: أيّ عبيدي، التي أدّعي فيها عدم عموم الفعل، والله [تعالى](٣٢) أعلم [بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وهو حسبي ونعم الوكيل](٣٣).



صورة المسألة الثالثة في نسخة المتحف البريطاني و في أسفلها موضع الزيادة



تتمة المسألة الثالثة في نسخة الظاهرية و فيها موضع النقص

□ □ □

الحواشي

١ - عَتَق العبدُ يَعْتِق، على وزن ضرب يضرب فهو عتيق وعاتق وأعتقته أنا كما في الصحاح.
٢ - يعني السبكي.
٣ - زيادة من (م).
٤ - ليست في (م).
٥ - إمام في الفقه والأصول ، أصله من حرستة في غوطة دمشق. ولد بواسط ومات بالريّ سنة ١٨٩ هـ. لازم أبا حنيفة ونشر مذهبه. ترجمته في الفهرست ٢٧١، وتاريخ بغداد ١٠٧/٢، وبلوغ الأماني للكوثري.
٦ - الإمام النعمان بن ثابت (٨٠ - ١٥٠ هـ) راس المذهب الحنفي. ترجمته في تاريخ بغداد ٣٢٣/١٣ - ٤٢٣، ووفيات الأعيان ٢١٥/٢، وكتاب «أبو حنيفة، حياته وعصره وآراؤه وفقهه» للشيخ محمد أبي زهرة.
٧ - في (ظ) : رضي الله عنه.

٨ - في (ظ) : وأن.
٩ - أي المثال الأول.
١٠ - انظر الحاشية رقم (١).
١١ - ساقطة من (م).
١٢ - عثمان بن جني (٣٢٧ - ٣٩٢ هـ) إمام في اللغة والنحو والتصريف، كتبه من أجود كتب اللغة في بابها ومن أشهرها «الخصائص» و«سرّ صناعة الإعراب» و«المحتسب» في شواذ القراءات. ترجمته في تاريخ بغداد ١١/٣١١، وإنباه الرواة ٢/٣٣٥، ووفيات الأعيان ١/٩٤، وبغية الوعاة ٣٢٢. وفي مقدمات محققي كتبه.
١٣ - زيادة من (م)، وفيها «أن يرى» موضع «أن يسري». والعبارة كما في (ظ): وإذا كان كذلك فيسري.
١٤ - في (م) : يرى.
١٥ - في (ظ) : إلى الفاعل.
١٦ - زيادة من (م).
١٧ - زيادة من (م).
١٨ - تقدّمت ترجمته في ص : ٤٣ ح : ٧.
١٩ - تقدّمت ترجمته في ص : ٤٤ ح :١.
٢٠ - زيادة من (م).
٢١ - زيادة من (م).
٢٢ - هو أبو عبدالله جمال الدين محمد بن محمد بن عمرون الحلبي النحوي (٥٩٦ هـ - ٦٤٩ هـ) سمع من ابن طبرزد، وأخذ النحو عن ابن يعيش وغيره، وبرع وتصدّر للإقراء وتخرّج به جماعه، وأخذ عنه النحّاس (بهاء الدين محمد بن إبراهيم)، وشرح المفصّل. وفي ترجمته في بغية الوعاة (١/٢٣١) وفي ترجمة ابن مالك في شذرات الذهب (٥/٣٣٩ - وفيات سنة ٦٧٢) أنه جالس ابن مالك بحلب. انظر البغية، والشذرات، وانظر أعيان العصر وأعوان النصر للصفدي (٢/٣٩٤).
٢٣ - مابين الحاصرتين ساقط من (ظ).
٢٤ - الإمام النحوي محمد بن عبدالله بن مالك (٦٠٠ - ٦٧٢ هـ) ناظم الألفيّة المشهورة التي لخّص فيها الكافية الشامية، وهو أندلسي رحل إلى المشرق وانتفع بعلمه كثيرون، ومات بدمشق. انظر ترجمته في بغية الوعاة وشذرات الذهب ومقدمة التحقيق لكتاب التسهيل.

٢٥ - في (ظ) : فقال.
٢٦ - في (م) : ههنا.
٢٧ - شاعر فارس من مخضرمي الجاهلية والإسلام، أسلم قبيل الفتح مع وفد بني سُليم وفيهم الخنساء، ويقال إنها أمه، والأرجح أنها زوجة أبيه - وعُدّ من المؤلفة قلوبهم. شهد مع الرسول صلى الله عليه وسلم بعض المشاهد، ومات سنة ١٨ هـ.
٢٨ - ليست في (م).
٢٩ - في (م) : لم يرفع. وفي (ظ) : وماكنت دون امر منهما

ومن تضع اليوم لم يرفع

والبيت من مقطوعة أنشدها ابن مرداس أمام النبيّ صلى الله عليه وسلم حين قسّم غنائم هوازن فيمن خرج إلى حنين، وأجزل العطاء للمؤلفة قلوبهم وفيهم الاقرع بن حابس وعيينة بن حصن، وأعطى كلاً منهما مائة بعير، وأعطى العباس أباعر فسخطها وقال أبياته. وقبل البيت:

وماكان حصن ولا حابس

يفوقان مرداس في مجمع

وانظر الشعر والشعراء ١٠١، وتهذيب ابن عساكر ٧/٢٥٨، والإصابة ٢/٢٦٣، والخزانة ١/٧٣، وديوان العبّاس ٨٥.
٣٠ - في (ظ) : الفاعل.
٣١ - في (م) : وهذا.
٣٢ - ليست في (م).
٣٣ - مابين الحاصرتين زيادة من (م).

أثر التراث في تجربة ناشر عربي

الأستاذ محمد عدنان سالم
دمشق

يتجلى تقديس التراث في حُمّى التحقيق العشوائي دون اختيار، ولا ترتيب للأولويات، فقد أعيد تحقيق كتب مطبوعة، دون أية دواعٍ أو تعديلات تسوِّغ الإعادة سوى المنافسة التجارية، وحققت كتبٌ فات أوانها، ومات موضوعها، وانعدمت جدواها، لمجرد أنها لم يسبق تحقيقها.

الزُّبدة لا الزَّبَد

أود أولاً أن أعتذر إليك أخي القارىء... إنني أكره أن أدخل إلى عالمك، عبر دهاليز ومقدمات مطولة، طالما أرهقت سمعك، وأتعبت بصرك.. فأنا أعرف أنك بتَّ تملُّ التكرار والاجترار، تعاف الفذلكات التاريخية، والمداخل التمهيدية، وتتطلع إلى زبدة الموضوع، وخلاصة القول.

لذلك فإنني أستميحك العذر في أن أفضي إليك مباشرة بخلاصة رأيي، آملاً أن تفسح لي من سعة صدرك ما يسمح لي أن أبسط أمامك أدلتي، عملاً بالمقولة السائرة: قل ما شئت وعلل.

ربما لا تتفق معي فيما ذهبت إليه، عبر تجاربي ومعاناتي، وقد تُغضب آرائي بعض المشتغلين في صناعة تحقيق التراث، وقد أكون على خطأ في تصوراتي واستنتاجاتي.

لا حرج في ذلك، فلتصبر وليصبروا، ولنتحاور بحثاً عن الحق والصواب، فإن (بارقة الحقيقة إنما تظهر من مصادمة الأفكار) كما في المثل الذي سمعته، مع أصله التركي، من أخي الأستاذ الشيخ حسام الدين فرفور، نقلاً عن والده الشيخ صالح فرفور رحمه الله.

كما أن القانون القرآني عن ذهاب الزَبد وبقاء النافع للناس، سوف يتكفل بذهاب الأفكار الميتة التي فقدت قيمتها وجدواها، وبقاء الأفكار الحية النافعة إلى أن يأتي ماهو خير منها وأكثر نفعاً: ﴿كذلك يضرب اللهُ الحقَّ والباطلَ، فأما الزَّبدُ فيذهبُ جُفَاءً، وأما ما ينفعُ الناسَ فيمكُثُ في الأرض﴾(١)

إنني أرى في معظم الأعمال الجارية في تحقيق التراث -سواء ما كان منها تحقيقاً مستعجلاً لإدراك متطلبات السوق، وما كان تحقيقاً علمياً مدرسياً يمعن في الشرح والتعليق وإثبات فروق النسخ - أرى في ذلك نوعاً من التكديس يجعله قاصراً على مرحلة التنقيب والجمع، لا يجاوزها إلى مراحل الانتقاء والتحليل وإعادة التركيب والبناء، التي هي وحدها الكفيلة بإعداد التراث للإفادة منه، وتوظيفه في خدمة الثقافة، في الحاضر والمستقبل.

كما أرى في موجة الإقبال على التراث - سواء أكان تجميعاً عشوائياً، وتحقيقاً له وتعليقاً، من قبل المحققين والباحثين، أم كان تهافتاً على اقتناء كتب التراث من قبل جماهير القراء، ودراستها من قبل طلبة العلم - على أنها القول الفصل ونهاية العلم، نوعاً من تعطيل الأفكار، وإخلادها إلى الراحة، وهروبها من الواقع، لائذة بالجهود العلمية للأسلاف.

ويخيل إليّ - حين أرانا نطلب العلم من كتب التراث، لنقف عندها - أننا كمن يحمل مشكلاته المستجدة إلى مراقد الأجداد؛ يسألهم فلا يجيبون، ويستفتيهم فلا يفتون، بل هم يعرضون عنه ساخرين من عجزه وكلالته.

هل أنا، بهذا، أهوِّن من شأن التراث، أو أحطّ من قدره، فأُصنفَ في عداد خصومه وأعدائه؟!

معاذ الله، فأنا من أولى الناس بالتراث، وبالدعوة إلى التنقيب عن كنوزه وجواهره، وبالحرص على جمعه وصيانته، بوصفه الأصل الثابت، والجذور المتمكنة في الأعماق، التي تملك القدرة على تغذية سوقها وأفرعها الممتدة في الآفاق.

إنما أنا أبحث عن الطريقة التي تجعلنا نحقق التراث الماضي، وأعيننا مفتوحة على الحاضر والمستقبل؛ نقرأ فكر الأجداد، ونرنو إلى أن نبدع كما أبدعوا. نستفيد من تجاربهم، ونتجنب أخطاءهم وعثراتهم، ونضيف لبنات جديدة في بناء الأفكار فوق لبناتهم، تظهر شخصيتنا، وتسوِّغ للتاريخ أن يتوقف عندنا، ليسجل إبداعنا، ولا يتجاوزنا ناعتاً إيانا بالعجز والكلالة.

يجب أن ننشد من التراث زُبْدَهُ، ونعافَ زَبَدَه. والزُّبد لا يستخرج إلا بالمخض، أما الزَّبد فهو الرغوة والفقاعات التي تعلو الزُّبدَ عند المخض، ثم لا تلبث أن تتلاشى وتذهبَ جُفاءً.

تقدير لا تقديس

فرق كبير بين تقدير التراث وإعظامه، بوصفه اجتهاد الآباء، الذي يتمتع بكل القابلية للصواب والخطأ، وثمرةً لاختلاف الآراء والعقول، الذي امتَنَّ اللهُ تعالى به على عباده رحمةً بهم، وتوسعةً لآفاقهم ومداركهم، ووسيلة لتنمية أفكارهم وترقيتهم، والذي لا يتميز صوابه من خطئه، ولا يُستخرج زُبْدُه ويُستبعد غثاؤه إلا بالمخض، ومقابلة بعضه ببعض

وبين تقديس التراث بوصفه نهاية العلم، وزبدة المعرفة، وتركة الآباء الذين أتقنوا كل شيء، وأحاطوا بكل شيء علماً، ولم يتركوا لأخلافهم مجالاً للزيادة فيه، أو الحذف منه، والمقياس الذي تعرض عليه الجهود العلمية للمتأخرين، فيقبل منها ماكان موافقاً له، ويرفض ما خالفه أو زاد عليه.

إن تقدير التراث، وعيٌ له، ونهلٌ من موارده، وبناءٌ عليه، ومواصلةٌ للسير بعده، واستمرار في بذل الجهود العلمية، التي بدورها ستصبح تراثاً لأجيال قادمة.

أما تقديس التراث، والطوافُ حوله، وتحريمُ مخضه خشية إزعاجه، ومنع مناقشته خوفاً من إقلاقه؛ فهو تعطيل للتراث، وتحنيط للأجداد، وتجميد للعقول، وتثبيط للهمم، وقعود عن الاجتهاد، وتثبيت لحركة الأفكار، وارتكاس في مسيرة الإنسانية، وتشجيعٌ على الكلالة والعجز والاتكال على جهود الآباء، وتحميلُهم أعباءنا وأوزارنا، وإلزامُهم بالتفكير نيابة عنا، ومطالبتهم بالإطلال علينا من وراء القرون، لحل مشكلاتنا.

هل في هذا القول مبالغة وتهويل؟ وهل فيه مجافاةٌ للواقع، وإجحافٌ بحق العلم والعلماء؟!

لئن كان الأمر كذلك، فما علة تخلفنا وانحطاطنا؟ وما أسباب عجزنا عن اللحاق بركب الحضارة، وقد كنا روادها؟! وهل تؤتى الأمم إلا من قبيل ضحالة أفكارها وخطأ تصوراتها؟! (أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها، قلتم أنى هذا؟ قل هو من عند أنفسكم، إن الله على كلِّ شيءٍ قدير)(٢).

وإن لم يكن في الأمر مبالغة فأين يتجلى التقديس للتراث في جهودنا العلمية الحاضرة؟

إنه يتجلى في تقديم التراث لطلابنا وأجيالنا، على أنه العلم، لا على أنه مصدر للعلم. ولقد مضى على الناس زمان، حددت فيه كتب العلم بجملة من المتون والمنظومات والشروح والحواشي، من حصَّلها فقد أحاط بالعلم، وكان يقال للطالب: إذا أردت اللغة فعليك بألفية كذا، وإن أردت الأدب فعليك بكتاب كذا، أو كنت تطلب الفقه أو الحديث أو التفسير، فعليك بكتب كذا وكذا... وكان هذا التراث يُزَيَّن له بوصفه أهلاً للثقة والتقديس، استمد قداسته من مضي الزمن. كما كان الطالبُ يُحَذَّر من الركون إلى الدراسات الجديدة، والعلوم المستحدثة، خوفاً عليه من الانزلاق في متاهات الضلال والزيغ.

وهو يتجلى في حُمَّى نشر التراث التي انتابت العالم العربي والإسلامي، في الثلث الأخير من القرن، وأفرزت ناشرين للتراث، لا يهمهم منه إلا التسابق على إعادة طبع العناوين التي يشتد عليها الطلب، تصويراً عن طبعات سقيمة غير موثقة ولا محققة، حتى اهترأت حروفها من كثرة التكرار، وتداخلت صفحاتها من شدة الإهمال، وتسترت عيوبها بأغلفة زاهية مزخرفة بالذهب، فأخذت أمكنتها على أرفف المكتبات زينة وتبركاً، واحتلت مرتبة الصدارة في أرقام المبيعات، بعيداً عن أصوات النقد، وأعين النقاد.

كما يتجلى تقديس التراث في حُمَّى التحقيق العشوائي دون اختيار، ولا ترتيب للأولويات، فقد أعيد تحقيق كتب مطبوعة، دون أية دواع أو تعديلات تسوِّغ الإعادة سوى المنافسةَ التجارية، وحققت كتبٌ فات أوانها، ومات موضوعها، وانعدمت جدواها، لمجرد أنها لم يسبق تحقيقها.

التراث وذهاب العلم

هل يوقف التراث زيادة العلم؟ وبتعبير آخر:

هل يمكن لتقديسنا للتراث، وعدِّه النموذج الأمثل أن يعكس اتجاه سير البشرية، فيجعل مثلها الأعلى في ماضيها، ويجعل جُلَّ همها أن تقرب حاضرها ومستقبلها من هذا النموذج الذي تحقق في الماضي، ويجعل إحساسها بالخيبة والفشل مستمراً. فالقرون الأولى هي خير القرون، وتتناقص الخيرية فيها بعد ذلك، حتى يأتي آخر الزمان، ويعم الفساد، ويذهب العلم؟!

أنا لا أتحدث هنا عن الثوابت - فثمة قيم ثابتة نزل بها وحي السماء، واستقرت في فطرة البشر، تضيء حياتهم على مر العصور - إنما أتحدث عن العوائق التي تقلب خط سير العلم، فتجعله ناكصاً متراجعاً بدل أن يكون نامياً متقدماً. وفي طليعتها التقديس للتراث الذي يعني تثبيت العلم، وحصره في القرون الأولى.. أتحدث عنها بوصفها واقعاً سبق أن شرحت بعض تجلياته ومظاهره من جهة، وبوصفها سبباً من أسباب التخلف عن اللحاق بركب العلم والحضارة من جهة أخرى.

إن هذا المفهوم مناقض للفطرة البشرية ومرفوض من عدة أوجه.

أ - فإذا عدنا إلى القرآن الكريم، وجدناه يقدم لنا مبادىء أساسية على شكل قوانين وسنن، تحث على إعمال العقل للاستزادة من العلم، وتدعو إلى الإبداع وتذم التقليد:

١ - ذم الآبائية، وتقليد الآباء بدون تفكّر: (قل أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءَكُم)(٣). (بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون)(٤)، (لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين)(٥)، (وَعُلِّمْتُمْ مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم)(٦).

٢ - الأمر بالاستزادة من العلم: (وقل ربي زدني علماً)(٧).

٣ - الأمر بالسير في الأرض لمعرفة تاريخ الخلق (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق، ثم الله ينشىء النشأة الآخرة)(٨).

٤ - استمرارية الخلق والإبداع وتوليد الأجنة (يزيد في الخلق ما يشاء)(٩)، (ويخلق مالا تعلمون)(١٠)، (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق)(١١).

٥ - المسؤولية الفردية عن استخدام وسائل المعرفة (ولا تقفُ ماليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد؛ كل أولئك كان عنه مسؤولاً)(١٢).

٦ - حتمية الاختلاف، وسيلةً لإغناء الأفكار، وعدُّه نعمة امتن الله بها على عباده: (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم)(١٣)، (ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم)(١٤)

٧ - ذهاب الزبد وبقاء النافع (فأما الزبد فيذهب جفاءً، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض)(١٥).

ب - ثم إنه مناقض لمنطق التراث نفسه: فالتراث لم يقم دفعة واحدة، وإنما قام على مراحل؛ كان اللاحقون فيها خلفاً للسابقين، ثم أصبحوا سلفاً لمن بعدهم، لكنهم لم يتوقفوا عن العطاء، ولم يجمدوا عند آراء السلف، بل استدركوا عليهم، وحذفوا وأضافوا، ولم يرضوا أن يلتزم الناس بعدهم بآرائهم، إذ بدا لهم ما هو خير منها وأقربُ رشداً.

والسلف بعد ليسوا على فكر واحد، إنما هم مدارس فكرية متباينة، فأي هذه المدارس أحق بالتقديس؟!

ج - ولعل التاريخ يقدم لنا دليلاً من الواقع، على أن مسيرة العلم لم تتوقف، بل إن رايتها

تنتقل من شعب نضبت مواهبه وجفت قدرته على الإبداع، إلى شعب ينشط لبذل جهوده الإبداعية، وإضافة جديد إلى المخزون المعرفي للبشرية. كما يؤكد لنا أن خط سير البشرية ماض في طريق التقدم والارتقاء المستمر، وأن الإنسان قد اجتاز عصور الحجر والصيد والرعي والزراعة والصناعة، إلى عصر المعلومات.

الإبداع في التراث

هل يمكن لنا أن نكون مبدعين، ونحن نتعامل مع التراث، ونعالج فكر الآباء؟ نعم! نستطيع أن نكون مبدعين، إذا نحن قمنابوظيفة الطبيب الذي يستولد الأجنة الكامنة في بطون أفكار الآباء، بدلاً من أدائنا لوظيفة(المُغسِّل) الذي يجهزها للدفن في مقابر التاريخ.

إن هذه الوظيفة تطلب منا السير في اتجاهات أربعة:

١ - **إحياء التراث،** تجميعاً يضعه تحت مجهر البحث والتحليل، لا تكديساً يحنطه في متاحف التبرك والتقديس. وذلك يقتضي الجد للتوسع في وضع مزيد من الفهارس الوصفية (الببليوغرافية) للمخطوطات العربية، وأماكن توضعها في مكتبات العالم، وتيسير الحصول على صور منها للباحثين، واستخدام تقنيات العصر الإلكترونية من حواسيب ووسائل اتصال لتسهيل ذلك.

٢ - **الانتقاء من التراث،** حسب مناهج ترتب الأولوليات، فتقدم العلوم التي مازالت تنبض بالحيوية، وتدعو الحاجة إليها، وتؤخر مافات آوانه، ومالا فائدة منه، وماهو تكرار لا جديد فيه.

٣ - **تحقيق التراث** : باختيار أفضل نسخه، ومقابلة بعضها ببعض، للوصول إلى النص الأقرب لما أراده المؤلف، وتوثيقها، والاقتصاد في الحواشي، والاكتفاء بشرح الغامض، وترجمة المجهول والمغمور، والتوسع في الفهارس، باتباع أحدث أساليب الفهرسة، التي يجب أن تكون مفاتيح بيد القارىء، تيسر له سبل الاستفادة من الكتاب المحقق.

٤ - **إعادة بناء التراث** : وهو الهدف الأسمى؛ الكبير والنهائي من تحقيق التراث، ويمكن أن يجري على مراحل:

أولاً - وضع فهارس موضوعية شاملة، على أحدث طرق الفهرسة، التي تقوم على إيجاد مكنز عربي موحد يتضمن رؤوس الموضوعات لجميع العلوم، مع تفريعاتها، وتطبيق هذه المكانز؛ على جميع كتب التراث.

ثانياً : بناء قاعدة معلومات تلم شتات التراث، على ضوء هذه المكانز؛ تقدم المعلومات للباحثين موضحة مراجعها، ومكان وجودها.

ثالثاً : اختزال التراث، على شكل موسوعات في كل موضوع على حدة، تقدم المعلومة معجمياً، بعد غربلة المعلومات لاستخلاص أصح المعلومات وأوثقها، وتخليصها من التكرار، والخطأ، والتناقض.

وهكذا يمكن أن نقدم للأجيال القادمة (عصارة التراث) في مجلدات معدودة، يتم فيها اعتصار مئات المجلدات، بعد تصفيتها، من التكرار، وتنقيتها من التناقض، وحسم المشكلات المختلف فيها، والمعبر عنها بجملة: قيل كذا، وقيل كذا، والله أعلم، أو بعبارة: وفي المسألة قولان.

وكذلك تصحيح الأخطاء المتناقلة، التي لم يكن من السهل اكتشافها لولا الحواسيب

ذات القدرة المذهلة على مقابلة المعلومات، ووضع الفهارس الموسعة التي تيسر الوصول إلى ما يتضمنه التراث من كنوز المعرفة .

□ □ □

الحواشي

١ - الرعد ١٣ : ١٧.
٢ - آل عمران ٣ : ١٦٥.
٣ - الزخرف ٤٣ : ٢٤.
٤ - الشعراء ٢٦ : ٧٤.
٥ - الأنبياء ٢١ : ٥٤.
٦ - الأنعام ٦ : ٩١.
٧ - طه ٢٠ : ١١٤.
٨ - العنكبوت ٢٩ : ٢٠.
٩ - فاطر ٣٥ : ١.
١٠ - النحل ١٦ : ٨.
١١ - فصلت ٤١ : ٥٣.
١٢ - الإسراء ١٧ : ٣٦.
١٣ - هود ١١ : ١١٨.
١٤ - الروم ٣٠ : ٢٢.
١٥ - الرعد ١٣ : ١٧.

ليبيا
في مخطوطات الرحالة المغاربة

الدكتور عبد الكريم كريم

رئيس جمعية المؤرخين المغاربة - الرباط

من دراستنا لتاريخ الرحلات المغربية إلى المشرق، نلاحظ أن بعضها كان يتم خلال القرن السادس عشر الميلادي بواسطة البحر المتوسط خاصة وأن النفوذ العثماني كان يشمل مناطق هامة من حوض هذا البحر؛ ومن ذلك على سبيل المثال: رحلة التامكروتي الى إستانبول عام ١٥٨٩-١٥٩٠م. غير أن اضطراب البحر المتوسط أواخر القرن السادس عشر الميلادي - نتيجة تحول طرق التجارة العالمية إلى المحيط الاطلسي وما رافقه من انتشار للفوضى في بلدان الشمال الإفريقي - أجبر القوافل على اتباع الطريق الصحراوي الذي ينطلق من مراكش عبر تافيلالت وتوات وبسكره وتوزر نحو فزان وما جاورها حتى وادي النيل. ومن ذلك الرحلتان المغربيتان اللتان قام بهما كل من ابن المليح عام ١٠٤٠ هـ وأحمد لهوتوكي عام ١٠٩٦هـ غداة تولية الباشا أحمد القرامانلي، أصبحت القوافل المغربية تأخذ طريق الساحل الليبي حتى النيل، ومن ذلك رحلات كل من الدرعي عام ١١٢١هـ والزبادي عام ١١٤٨هـ. الحضيكي عام ١١٥٢هـ والصغير عام ١١٥٢هـ . والناصري عام ١١٩٦هـ...

أولاً : طوبوغرافية المنطقة

أ - بالنسبة للطريق الجنوبي الصحراوي

ب- بالنسبة للطريق الشمالي الساحلي

مع تفاصيل لأسماء الأماكن الرئيسية التي كانت تحط بها القوافل وتقدير للمسافات التي تفصلها.

١ : **الطريق الجنوبي الصحراوي**: ينطلق من مدينة مراكش إلى وادي درعة وإلى قصبة تنزولين ثم بلاد بلبالت وتوات (هنا يتم اللقاء عادة مع الوفد السوداني) فصحراء أزكيز وبلاد فزان بليبيا.

تعبر القوافل الصحراء الجنوبية الليبية في طريقها نحو الشرق:

أ - بلاد فزان، وأهم محطاتها: آبار (أباري)، مدزك (مرزوق)، جرمة، دجان،ززي، تراغن (طرغين)، زويلة، تبسه (تمسه).

«أول منزل نزله الركب وصادفه المولى الرب قصر أبارصانه الباري... فاتصل الخبر بأميرها... فوجه من فرسان دولته وخدام مملكته نحو اثني عشر فارساً... ثم انتقل بعده لقصر يقال له جرمة ... أهله جياد وأيامه أعياد أكثر لحومه الدجاج ثم بعده

لقصر دجان... ثم لقصبة السلطان الجليل الرئيس محمد بن جميل وهي المعروفة بمدزك... ما أحسن سيرته في رعيته وأنشد عدله في بريته... تأهب أعانه الله للقيا الحجيج وتلقاه بفرح وسرور... وأمر قاضي عسكره وصاحب النوازل الشرعية ببلده أن يستنفر له من الركب دروة فاختار له عشرة فجالسهم بالمحكمة... ثم أمر بمنادينا من ضيع لمغربي خروبة قطعت يده ومن ضيع له مثقال قطع رأسه» (ابن مليح، ص ٢٢-٢٣).

ثم ارتحل القوم وحلوا «بقصر ززي ثم نزلنا بقصر تراغن قصر عظيم» حيث استضافهم هناك الأمير عمر التراغني .أما «زويله فيحكى أنها كانت مدينة عظيمة كثيرة النخيل وفيها مزارات وآثار تدل عليها ويذكر أن دفات أبوابها هي القائمة على باب زويله أحد أبواب مصر وسميت بذلك» (ابن مليح، ص٢٤).

واتجه القوم إلى «مورد يقال له أبو اللباع غابة من شجر وفيه آبار قصار قريبة الماء ثم لقصر تبسه وهو أعلى قصور فزان وآخرها كثيرة المياه والعيون» (ابن مليح، ص ٢٥).

ب - بلاد «الفقها بلدة في صحراء بين جبلين فيها عيون جارية ونخيل قطوفها دانية». (المرجع السابق، الصفحة ذاتها).

اما «زلة فمدشر صغير لامعاش عندهم ولاقوت إلا ماء يسمونه (اكب) يستخرجونه من النخيل أبيض حلو ثم يطبخونه ويستخرجونه منه». (المرجع السابق، الصفحة ذاتها).

٣ - بلاد وجلة «رحب المسعى كثيرة المرعى أحدقت بها الجنات من الجوانب تسقى بالدوالب زرعها كثير وخيرها غزير تجلب لها الأرزاق من الأقطار والآفاق، كثيرة اللحوم والسمن، يجلب لها ذلك من الجبل الأخضر من برقة تأتي القوافل منها كثيراً. أهلها سماح الوجوه وبنيانها يشبه بناء المغرب في الشكل. ولها بابان: أحدهما لناحية المشرق، والآخر لناحية المغرب. وأعذب آبارها بئير بباب البلد منها يسقون لان غيره لايشبهه في الطعم...

«وارتحل الركب لمنهل قريب من البلاد يعرف بجراجي، فيه آبار... وبعده بلاد صحراوية لاترى فيها إلا رياحا تهب، وكتائب الرمل كأنها رواحل تخب، يقال له الغرود تطيش له العقول... وفيها كهوف ودور يقال إنها لقوم عاد منحوته في الجبال. سرنا فيها أكثر من نصف يوم». (المرجع السابق، الصفحة ذاتها).

ومنها «لبلاد سيوره مدشر عظيم على ربوة مرتفعة. دُورُها بعضها فوق بعض كثيرة الأشجار والنخيل متفجرة العيون تشبه جناتها جنات بلدنا مراكش». (المرجع السابق، الصفحة ذاتها). ومنها نحو مصر.

ب: **الطريق الشمالي الساحلي**: ينطلق من مدينة قابس التونسية نحو مدينة طرابلس وسرت واجد وابية وبرقة فمصر... «كان دخولنا طرابلس ضحى الثلاثاء الرابع والعشرين من شعبان [عام١١٤٨هـ] وكان نزولنا حيث ينزل ركب الحاج في وسطها... فيها مساجد وأسواق، وتقام بها الجمعة وأهل البلد يسمونها الظهرة من الظهور لأنها ظاهرة أي عارية من النخيل بخلاف العمارات المتصلة بهذا البلد من كل جانب فإنها كلها وسط النخيل والحجاج يسمونها الزرارية باسم رملة متصلة بما بينها وبين البلد يعمر بها سوق عظيم» (الزبادي، ص ٢٣).

«وفي يوم الثلاثاء أول يوم من رمضان [عام ١١٤٨هـ] دخل الركب الوارد من المشرق

والقاصد بلاد المغرب فنزل أيضا هاتيك الدور وشرع كل من الركبين في قضاء الأمور وأخذنا في كتب الكتب إلى من خلفنا بفاس من الأحبة كالأهل والأشياخ وذوي المحبة» (الزبادي، ص ٢٥).

بعد مدينة طرابلس يواصل القوم طريقهم بمحاذاة الساحل «بتنا عند عين عافق على ساحل البحر... ثم بتنا عند جبل النكازة... وفي سفح هذا الجبل من جهة الساحل مدينة عظيمة يقال لها مدينة لبدة قد خلت قديماً وبقيت آثارها... ثم نزلنا إلى ساحل حامد... ومررنا ببلدة أزلتين وهي بلدة مثل التي قبلها في النخيل والسواني». (الزبادي، ص ٣٦،٣٥).

أما مدينة «مسراته فسرنا فيها ما شاء الله وبتنا، ومن الغد.... نزلنا ضحى زاوية الشيخ العلامة... قطب مغربنا وإمام أئمتنا أبي العباس أحمد البرنسي... الشهير بزروق رحمه الله». (الزبادي، ص٣٧).

من الأماكن التي وقف فها القوم: النعيم - المنعم وبقربها مقطع الكبريت «سمي بذلك لأن في أعلى سبخة هنالك معدن الكبريت في آبار كثيرة يحمل منها كالطين ومن هنالك يحمل إلى مصر والإسكندرية ومن المنعم يفارق الركب البحر فيتيامن عنه». (الزبادي، ص ٤٤).

واجد أبيه «بلد قرب برقه... والموجود اليوم آثارها الدالة على العمارة الكثيرة وهي آبار كثيرة في براج من الأرض عظيمة منقورة في الحجر وبقية بنيان حولها متين هائل بالحجر المنحوت وهنالك رسم مسجد قديم... ومن أجدابية إلى سلوك... أبر في فسيح من الأرض وبإزانها رسوم بناء... وسلوك بمرأى من الجبل الاخضر قريبا من مرسى ابن غازي... ومن سلوك يحمل الركب ماء سبعة أيام لأن طريقهم في هذه الازمنة على السروال وهو مسيرة سبعة أيام لاماء فيها» (الزبادي، ص٤٥).

و«التميمي... ماؤه على قلته ليس بالطيب وبينه وبين درنة مسافة يوم ونصف وهي مدينة على ساحل البحر لها مرسى عجيبة تنزل بها السفن» (الزبادي، ص٤٨).

ومن المحطات أيضا: الدفنه، الجرجوب حيث «يميل الناس يساراً إلى البحر في منحدر صعب مشرف على البحر فينزلون إلى رمل أبيض يظهر من بعيد كأنه الثلج فيخرجون الماء منه بعد حفره». (الزبادي، ص٤٨).

وهناك الشمام والمدار والعقبة ووادي الرهبان فبلاد مصر.

ثانياً : اقتصاديات البلاد

١ - الزراعة ورعي الماشية.

٢ - التجارة في المدينة الرئيسية (طرابلس)، وفي جميع المناطق التي تحط بها القوافل.

- مواد التجارة: مزروعات وماشية ومصنوعات.
- التجارة الخارجية: تتم عبر البحار.
- التجارة الداخلية: مع أهم المناطق الجنوبية.

٣ - طرق المواصلات ووسائلها.

من أهم المناطق الخصبة:

- قرى زيزور: «ذات عنب وزيتون كثير» (الصغير، ص٧٥).
- بلاد طرابلس «ونزلنا الترابلس مدينة على شاطىء... كثيرة المزارع والبساتين والفواكه بأنواعها» (الحضيكي، ص١٥).
- وادي الرمل «واد متسع عذب الماء لاينقطع ماؤه صيفا وشتاء... وهو واد مخصب من أعلاه فيه مزارع تخرج إليه ماشية أهل طرابلس أيام الربيع» (الدرعي، ص٤٥).
- وادي السيد «هو كالذي قبله أو أخصب منه

وماؤه ماء غريب لاينقطع صيفاً ولاشتاء» (الدرعي، ص٤٦).

– جبل النكازه «وزيت هذا البلد من أطيب الزيوت مذاقاً سيما ضرب منه يسمونه ضرب الماء يعصرونه بالماء ولا أدري كيف يصنعون بذلك لاتكاد تميز بينه وبين السمن» (المرجع السابق، الصفحة ذاتها).

– ساحل حامد «وبلدة حامد بلدة كبيرة ذات نخيل كثير ومزارع وأسواق وزيتون إلا أن نخله رديء التمر كنخل هذه السواحل كلها» (الدرعي، ص٤٨).

– مزارع سرت «وبلاد سرت من أخصب البلاد ذات مزارع كثيرة بالعمل وعربها أهل رفاهية» (الدرعي، ص٥٨).

– الجبل الاخضر «لايوجد أخصب منه ولاأكثر منه... وطول هذا الجبل نحو عشرة أيام... وأكثر أشجار الناحية التي مررنا بها العرعر حتى إنه من شدة اشتباكه والتفافه لاينفذ الناس فيه الا في طرق معلومة وشُعَب مسلوكه» (الدرعي، ص٦١-٦٢).

اما اهم المراكز التجارية فهي مدينة طرابلس التي ظلت المركز الرئيسي للتجارة والمبادلات: «يعمر بها سوق عظيم... وفيها يلتقي الركب الوارد من المشرق... وشرع كل من الركبين في قضاء الامور». (الزبادي، ص٢٥). «ومن هذه المدينة يقضي الجميع المحتاج إليه من بغال وقرب وزاد... ويبقى الخير لاهل البلد ومن العجب أن السعر لايزيد عما كان وربما نقص». (الصغير، ص٧٧).

«وهذه البلاد... تأتيها الأقوات براً وبحراً». (الصغير. ص٢٣٢). «لأهل طرابلس ومن والاهم شراب يسمى اللقم... ترى الرجل يبيع من نخلة واحدة ما ثمنه عشرون مثقالا فأكثر» (الناصري، ص١٢٧). «ولك ان تشتري من مدينة طرابلس حياك سواداً وطواقي تلقي فيها ربحاً وتستخرج حوائجك في طريقك» (الحضيكي، ص١٥). «برج الملح بناه الطرابلسي... ووجدنا في مرساه سفناً ومرساة وقوارب موقورات بالملح» (الناصري، ص١٤١).

ومن المراكز التجارية الاخرى:

– جبل النكازه «وهناك تسوق أهل مسلاته الركب... بزيت كثير طيب رخيص» (الدرعي، ص ٤٦).

– برقه «في أعلى السبخة معدن الكبريت في أبار كثيرة يحمل منها كالطين ومن هنالك يحمل الى طرابلس وكذلك الى مصر» (الدرعي، ص٤٩).

– سلوك «به تتعرض الأعراب للأركاب لقصد التسوق ويجلبون إليها الكثير من الثمار والزرع واللحم والابل» (الدرعي، ص٦١).

– ابن غازي «مرسى حسنة بسفح الجبل الأخضر... تنتقل منه السفن الى طرابلس وجربة» (الدرعي، ص٦١).

– أولاد علي «نزلنا واشترى الناس منهم ما ارادوا من الشعير لدوابهم والغنم والدقيق والتمر نصف ريال للقفة» (الدرعي، ص٦٣).

– التميمي «موضع فيه آبار غزيرة المياه... ووجدنا هناك بعض العرب بكثير من الغنم فاشترى الناس منهم غنماً رخيصة وإبلاً وشعيراً وسمناً» (الصغير، ص٢٠٩).

ومن جهة اخرى لم يفت بعض الرحالة المغاربة ان يقارنوا بين بعض المناطق بليبيا ومثيلاتها بالمغرب:

– «بلاد وجله بلاد رحب المسعى كثير المرعى... أهلها سماح الوجوه وبنيانها يشبه بناء المغرب في الشكل» (ابن مليح، ص٢٥).

– «بلاد سيوره مدشر عظيم على ربوة

مرتفعة... تشبه جناتها جنات بلدنا مراكش» (ابن مليح، ص٢٥).

- «تمر سوى أجود التمر لم نر من يوم خروجنا من فجيج وتفللت تمراً يشابه تمر بلدنا إلا هذا لوناً وطعماً» (الصغير، ص٨٩).

- «الجبل الاخضر... فيه كثرة شجر العرعار وغيره ولم نر جبلا يشبه جبال بلادنا سواه» (الصغير، ص٢١١).

- «جبل النكازه وهو مثل جبل درن المعروف بسوس». (الناصري، ص١٦٦).

ثالثاً: أنماط المجتمع الليبي

من دراستنا للمخطوطات السالفة الذكر، نتعرف على أنماط مختلفة للمجتمع بليبيا خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين على النحو التالي:

- هناك المقيمون بالمراكز الحضارية كمدينة طرابلس وفي بعض القرى المتطورة المنتشرة بالسواحل وبعض المناطق الداخلية.
- هناك البدو الرحل حيث الكلأ والعشب.
- تفاعل المجتمع الليبي مع قوافل الحجاج.
- مشاكل بعض القبائل المتنقلة وعوامل خروجها أحياناً.
- من العوامل التي يعاني منها الرحالة الأمرُين الطبيعة القاسية والتضاريس الصعبة، ومهاجمة بعض القبائل للقوافل، وضعف الأمن، وانعدام السلطة احياناً.

تتعدد مراكز العمران بالقطر الليبي وخاصة في سواحله الشمالية وتأتي في الطليعة مدن: طرابلس، مسراته، أجدابية، برقة أما في المناطق الصحراوية فيتجمع القوم في الواحات حيث الماء والكلأ وبعض الأراضي الصالحة للزراعة مثل: قصر الباري، جرمة، دجان، مدزك، قصر ززي، قصر تراغن، زويلة، الفقها، زله، وجله....

ومن جهة اخرى فإن لكل نمط من أنماط المجتمع عاداته وتقاليده، من ذلك كما دونته هذه المصادر:

- «انكباب أبناء الطوائف على السماع بالدفوف والمزامير وسائر الآلات والأشعار والألحان» (الدرعي، ص٤٩).
- استعمال شراب يسمى «اللقم حيث يعمدون إلى النخلة فيقصون جريدها حتى الذي في وسطها... وهو يقدم للضيف في القرى كالقهوة عند معتاديها» (الناصري، ص١٢٦).

ومن اشهر القبائل:

- عرب عكاره، وعبد النبى، وابن مريم (الدرعي، ص٣٤).
- أولاد علي. (الدرعي، ص٦٣-٦٤).
- أعراب النوائل. (الناصري، ص١٤١).
- بنو سعد، وعرب ازواغه. (الناصري، ص١٤٤).
- عرب أكماضة. (الناصري، ص١٦٦).
- أولاد سليمان. (الناصري. ص١٧٢). «وأعراب هذه النواحي لازالت معهم في كلامهم بعض فصاحة ونطق بلغة قديمة وأفصح منهم أعراب برقة لقلة مرور الناس بهم وعدم مخالطتهم لغيرهم وقلة جولاتهم وعدم دخولهم الأمصار» (الناصري، ص٢٣٢).

وكثيراً ما كانت بعض القبائل تدخل ضد بعضها البعض في منازعات. «القبائل الموجودة... هي أولاد سليمان... يغيرون تارة على أعدائهم...» (الناصري، ص١٧٣). أو تغير على القوافل. «ومررنا على أولاد علي والحرابة بعد الظهر وظهرت فيهم مخائل المكر وأخذ الناس حذرهم منهم وتأهبوا أهبتهم واجتمع الركب وجعلوا له ميمنة وميسرة وشمروا

لمحاربتهم... ورمت الناس البنادق إرجافاً بهم وإظهاراً للقوة وإرهاباً لهم وخافوا غاية الخوف» (الدرعي، ص ٦٤).

«وتبعنا خيل من السلالمة يطلبون غرة من أخريات الركب ولكن الله سلّم وتلك عادتهم قطعها الله من عادة» (الصغير، ص٩١).

وكان لجور الحكام أحياناً أخرى الأثر الأول في اضطراب الاوضاع «وبلاد سرت هذه من أخصب البلاد وعربها أهل رفاهية إلا أن الجور أجلاهم عن بلادهم وشتت شملهم ولايكاد أمرهم ينتظم» (الدرعي، ص٥٨)

رابعاً : في المجال السياسي

تلقي هذه المخطوطات الضوء على أوضاع البلاد الليبية خلال القرن الحادي عشر الهجري = السابع عشر الميلادي يوم كان الباشوات الأتراك ومساعدوهم يتقاسمون الحكم والسلطة بالشمال، بينما تعيش المناطق الجنوبية في عزلة وفي أوضاع خاصة تحت حكم عدد من الأمراء العرب.

وكثيراً ما كانت المراكز الليبية الرئيسية كمدينة طرابلس مثلاً تتعرض لهجومات خارجية كما حصل عام ١٠٩٦هـ حين هددت المدينة بالاحتلال الأجنبي، وكيف أنّ جهود العامة تعبأت لمواجهة الغزو بما في ذلك جميع من في الركب المغربي، الذين اعتقدوا ان الجهاد في سبيل الله والدفاع عن ديار الاسلام والمسلمين اعظم مما سواه.

على أنّ تولية الباشا أحمد القرمانلي الأمر في طرابلس وما قام به لنشر الأمن في البلاد كان له أكبر الأثر في تطور الأوضاع العامة من الأمثلة التي أوردها الرحالة الدرعي في مخطوطه عن جهاد الليبيين ضد الهجوم الصليبي الذي تعرضت له مدينة طرابلس عام ١٠٩٦هـ. والذي شارك في رد عدوانه وفد الحجاج المغاربة: «وفي رحلتنا للحرمين الشريفين سنة ست وتسعين والف حاصر الكفار طرابلس... فإذا بسفن ثلاث ظهرت في البحر ثم تتابعت الفلك في اليوم نفسه إلى أن كملت اثنتين وعشرين سفينة فأقاموا عليها بقية الثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة وأهل المدينة في تلك المدة في هَول عظيم... والمسلمون في هذه الليالي كلها لاينامون بل يحرسون على البحر ويطوفون حوله ونحن ركبنا معهم في ذلك مستهلين بالشهادة رافعين أصواتنا بالتكبير معلنين بالصلاة على البشير النذير... فلما كان بعد صلاة العشاء ليلة السبت ضرب الكفرة دمرهم الله بمدافعهم فرأينا من ذلك مالم نره قط ولاسمعنا به ترى البارود حتى يخرج من بخش المدفع فإذا بكورة محماة تحكي الشهب خرجت منه صعدت ثم يرمون بأخرى وترتفع أكثر من الأولى ثم تتدلى هابطة فاذا وقعت بالأرض سمع دوي هائل تصم منها الآذان فتتصدع في الموضع الذي وقعت فيه وتتفرق ولاتقع على بناء إلاّ وهدته... ولما قرب الزوال زحفوا للمرسى فعاقهم من بالبرجين على البحر من المرابطين وردوهم على أعقابهم بما قذفوهم به من الكور والمدافع» (الدرعي، ص٣٩).

«وطرابلس مدينة مساحتها صغيرة... ونكايتها للعدو شهيرة... بها مراكب قلَّ نظيرها معدة للجهاد في البحار قلما تسافر وترجع بغير غنيمة... فجزاهم الله خيراً وأعانهم على ماوالاهم من ذلك» (الناصري، ص١٤٩).

وعلى طول الساحل الليبي أضرحة وزوايا المجاهدين التي يرابط بها القوم دفاعاً عن ديار

المسلمين ضد الغزاة الصليبيين «وهذه المزارات كلها... تأوي إليها الجهابذة من الزهاد والأئمة الأفذاذ لقصد الرباط وحراسة الإسلام لكونها ثغراً من الثغور العظام» (الدرعي، ص٤٤).
ومن تلك المزارات:
- «ضريح الإمام أحمد بن أحمد بن رزوق البرنوسي الفاسي» (الدرعي، ص٥٣).
- «وبه [الساحل الليبي] من الصالحين القدماء السيد حامد مقبور على ساحل البحر» (الناصري، ص١٤٥).
- «زار الركب عدداً من الأولياء مثل قبر الولي مفتاح على شاطىء البحر... وزاوية سيدي علي الفرجاني... وزاوية سيدي علي بن عبد الصادق» (الناصري، ص١٦٨).
وأشاد رحالتنا بعدد من الأمراء العرب مثل حاكم مدرك محمد بن جميل «ما أحسن سيرته في رعيته وأشد عدله في بريته» (ابن مليح، ص٢٣). ونوهت بكرم وحسن استقبال عدد من المراكز العربية في الصحراء. «انتقل الركب بعده لقصر يقال له جرمة... أهله جياد وأيامه أعياد، أكثر لحومه الدجاج» (المرجع السابق، الصفحة ذاتها).
ووقفوا في الوقت نفسه عند جور حاكم طرابلس الباشا التركي وكيف أن الأمر أدى إلى قيام ثورة ضده. «وقعت فتنة واختلاف بين أهل طرابلس وباشاها حينئذ [شعبان١١٢١هـ] كان ظلوماً فجوراً يقدم الكفرة من الروم على أهل الإسلام واتخذ بطانة من النصارى ويوليهم على المسلمين وأضر بالمساكين ولا لأحد عنده حرمة، فلذلك قيض الله له من نفاذ من أهله وقبيلته وقامت معه العامة وأسعدوه على نفيه... فسدوا المدينة في وجهه والشوارع بين يديه» (الدرعي، ص ٣٥).
ومن الأمثلة على سوء تصرف هؤلاء الباشوات وتعسفهم قول الصغير: «وتبعنا خيل من السلالمة يطلبون غرة... وهم كثيرون انضاف إليهم كثير من عرب برقة وطرابلس ممن يفر من جور عمال طرابلس» (الصغير، ص٩١).
وكثيراً ما اعرب هؤلاء الحجاج عن أمانيهم في أن يقيض الله لهذه البلاد من يوطد الأمن وينشر العدل ويمهد السبيل «ولو احتسب أحد من الولاة بحفر بئر فيه لكان له في ذلك أعظم أجر لأنه في محل بعيد من الماء في كل الجهات» (الدرعي، ص٦٢).
«القبائل الموجودة حتى النعيم وما حوله... رئيسهم الآن يدعى... يغيرون تارة على أعدائهم... وربما خافه أهل طرابلس... أراح الله منه ومن أضرابه العباد والبلدان» (الناصري، ص١٧٣).
وعندما تولى أمر البلاد الباشا أحمد القرمانلي عام ١١٢٣هـ = ١٧١١م وتمكن من إقرار نوع من الأمن والاستقرار عكست ذلك مخطوطاتنا. «فألفينا البلاد في غاية ما يكون من الرخاء... وفي هذه المدينة [طرابلس] يلتقي الركب المغرب مع الركب المشرق... وهذه نعمة من الله تعالى له الحمد وله الشكر ومن هذه المدينة يقضي الجميع المحتاج إليه... ويبقى الخير لأهل البلاد ومن العجب أن السعر لايزيد وربما ينقص» (الصغير، ص٧٧).

خامساً : الناحية الفكرية

- تعدّ المدن الكبرى أعظم المراكز العلمية حسب هذه المخطوطات، وتتضمن من جهة أخرى أسماء عدد من العلماء والفقهاء الليبيين وكذا المدارس والمساجد التي كانوا يدرسون بها والمؤلفات التي ألفوها وقد هاجر إلى ليبيا عدد من علماء الإسلام من بينهم بعض العلماء المغاربة الذين رابطوا بمناطق مختلفة من البلاد إلى أن توفوا بها.

- يتعرض مؤلفو هذه الرحلات المخطوطة إلى تاريخ كل منطقة على حدة، بل ويرجع في ذلك إلى عدد من المصادر القديمة والمراجع الحديثة المعاصرة لزمانه، أضاعت الأيام معظمها، فكان أن أصبحت مصادرنا هذه بمثابة قولهم: «إذا ضاع الأصل حل الفرع محله».

حرص رحالتنا على مجالسة العلماء وحضور مجالس العلم خلال مرورهم بالقطر الليبي، وسعوا إلى الاستفادة من المؤلفات وتسجيل الكثير من المعلومات الهامة المفصلة عن الحياة الثقافية سواء في المدن والمراكز الساحلية أم في الواحات الصحراوية الجنوبية. «كان دخولنا طرابلس... وقد اجتمعت هنالك في منزلي بالفقيه العلامة عمر بن محمد بن علي المغربي الشهير بالسوداني من أمثل أهل زمانه علماً وديانة... وممن ورد علي أيضاً في منزلي الفقيه محمد بن محمد بن عبد الكافي يدعى بوعثور الصفاقسي... وقد أخبر أن عندي نسخة من الرحلة العياشية و عنده نسخة منها فيها شيء من التصحيف فأراد مقابلتهامن نسختي» (الزبادي، ص٢٤).

«نزلنا بعد هذا ضريح سيدنا الإمام الشيخ أحمد رزوق الفاسي... وعليه قبة في جانب جامعه ومدرسته مازالت عامرة إلى الآن وفيها إذاك الطلبة يتعاطون العلم بحسب الإمكان» (الحضيكي، ص١٥).

«والتقينا هناك [طرابلس] بالفقيه السيد عبد الرحمن بن حسين... ومع الفقيه الشريف محمد الفرجاني وهو عالم عامل وتكلمت معه في مسائل من الفقه والحديث ومع تلميذه الفقيه السيد بن ناصر وأدخلنا داره وأكرمنا... وشيخ الجماعة المدرس السيد محمد العكلاني ووجدته يدرس به المذهب المالكي والحنفي وحضرت مجلسه في صحيح البخاري فأبدى وأجاد وزرت الفقيه الناسك... محمد بن مصطفى المغربي في داره وهو شيخ معروف بالصلاح ابتنى مدرسة لطلبة القرآن والعلم ويعلمهم فيها ويمون ما أمكنه منهم» (الصغير، ص٧٧).

«وبقينا بطرابلس... والتقيت بشيخنا محمد بن مصطفى المغربي... وقرأت عليه أول صحيح البخاري... وأجازني به لفظاً دون كتابة» (الصغير، ص٢٣٢).

«وقد وقفت لهذه القصيدة على شرح لسيدي محمد بن عقيل الطرابلسي سماه: التذكار فيمن ملك طرابلس أو كان بها من الأخيار» (الناصري، ص١٥٣).

وحرصا منهم على الأمانة العلمية أشار بعضهم إلى عدد من الملاحظات التي يجب أخذها بعين الاعتبار مثل موضوع الأسماء «واعلم أن اعتمادنا في تسمية مراحلنا السالفة والمياه السابقة على خبر الدليل ولربما رشحناه بخبر بعض الأعراب أن اجتمعنا به والعهدة عليهم لكونهم أهل البلد» (الناصري، ص١٧٥).

□ □ □

غربة المخطوط العربي

الدكتور مختار هاشم

عضو مجمع اللغة العربية بدمشق

زار الدكتور مختار هاشم المكتبة الوطنية في باريس فعثر على عنوان مخطوطة أشكل عليه حينما قرأ رسمه هكذا : «الأبورية ؟ الودية في الأبحاث الوردية» للطبيب محمود بن يونس الخطيب الدمشقي المتوفى سنة ١٠٠٨ هـ / ١٥٩٩ م.

فلما نظر في المخطوطة نفسها رأى أنها تسمى «العبورية الودية» أي أنها تعبر إلى القلب في مودة. وعرف أن المفهرس الفرنسي قرأ الاسم على نحو مغلوط فوضع إشارة الاستفهام بجانبه كما يفعل المكتبيون.

وقد أثارت الحادثة قريحة الدكتور هاشم فانشد القصيدة التالية :

عَبوريَّةٌ وُدِّيةٌ طوَّحتْ بها — صروفُ النوى حتى استقرَّ اغترابُها

بشارعِ «ريشليو» أُضيفتْ وسُمِّيتْ — «أبوريَّةً» ما إنْ يهونُ مُصابُها

تقولُ: جعلتُ الوَرْدَ مني رسالةً — إليكمْ ولكنْ لمْ يَعُدْ لي جوابُها

وهُنْتُ على أهلي ولم ألقَ عندهم مقاماً وهزَّتني بداري كِلابُها

تلقَّفني شخصٌ غريبٌ وحطَّني بدارٍ ودادٍ لا تضيقُ رحابُها

ولكنَّني خلَّفْتُ بعضي بجِلَّقٍ وقد ضاعَ لم يحفظْهُ مني كتابُها

وكم ضاعَ مثلي من كرائمِ يَعْرُبٍ إلى الغربِ زُفَّتْ حيثُ تمَّ انتهابُها

وكم من سبايا للتراثِ قد اختفتْ ولم يدرِ أهلُ الدارِ أين جنابُها

فأين حُماةُ الدارِ من آلِ يعربٍ لمن تقتني أسيافُها وحِرابُها

سلامٌ على شَهْمٍ أحسَّ بِغُربتي وغُربةِ نفسٍ يستجِدُّ عذابُها

من الأهلِ أدناني وكنتُ شريدةً ومعرفتي بالأهلِ عزَّ طِلابُها

ولكنني قد عدتُ وجهي مُشَوَّهٌ وتلك ديونٌ لا يُوَفَّى حسابُها

وهَوَّنَها ما قد رأيتُ بموطِني فتوقَ جِراحٍ لا تُضَمُّ شِعابُها

أنا ابنةُ محمودٍ حفيدةُ يونسٍ فتاةٌ سما في المكرُماتِ انتسابُها

خطيبٌ رئيسٌ للأطبّاءِ ينتمي لآلِ خطيبٍ فالفخارُ مآبُها

تنبيهات حول الفهرس الذي وضعه محمد العابد الفاسي رحمه الله لمخطوطات خزانة القرويين

الأستاذ محمد عبد العزيز الدباغ
محافظ خزانة القرويين - فاس

إنّ الاطلاع على التراث المخطوط يقتضي من جميع الهيئات الثقافية، ومن جميع الأفراد المسؤولين عن الخزائن أن يبذلوا مجهوداً في التعريف به، وأن يهيئوا الكشوف اللازمة والفهارس المقربة للموضوعات والأسماء، وأن يستغلوا المعطيات التقنية المعاصرة التي ربطت بين أجزاء العالم، إذ لم تعد هناك فروق زمانية أو مكانية نظراً لتطورات وسائل التواصل البشري، سواء عن طريق الندوات العلمية والفكرية، أم عن طريق استغلال الأقمار الاصطناعية، أم عن طريق البعث بالفاكس وغيره من وسائل الربط والاتصال.

وينبغي أن يكون هناك توازن بين عملية الفهرسة وتسجيل أسماء الكتب والتعريف بمراكزها، وبين عمل أخر علمي يحرص على التعريف بمضامينها ومحتوياتها، ويمكن إيجاد تعاون في هذا المجال بين الجامعات على اختلاف كلياتها وبين الخزائن العامة والخاصة، فإنّ هذا التعاون سيحقق لامحالة تقدماً علمياً، وسيضع تلك المخطوطات في معيار نقدي ليستفاد من الصالح منها، ولتعم فائدته بين الناس، خصوصاً وأنّ الكثير من تلك المخطوطات يحتاج إلى معاناة كبيرة من الذين يتعاملون معها نظراً لتلاشي الكثير منها، ولتعذر الوصول إلى المحتوى المقصود إلا بعد الاطلاع على نسخ متعددة من الكتاب الواحد إذا وجدت، فإن لم توجد فإن المحقق يكون حريصاً على المقابلة بينها وبين بعض النصوص المنقولة عنها، فإذا تعذر عليه ذلك فإنّه قد يقضي الساعات الطوال في التأمل عساه بذلك أن يكشف غامضاً، أو يصوب خطأً، أو يصحح تحريفاً. وذلك ما لا يتيسر إلا للقليل من المصححين والمحققين، ولله در الشاعر الذي يقول:

لا يعرف الحُبَّ إلا من يكابده

ولا الصَّبابة إلا من يعانيها

ولعل من أهم الفهارس التي وضعت لخزانة القرويين بفاس، فهرس المخطوطات الذي وضعه الأستاذ محمد العابد الفاسي رحمه الله، فقد كان يحرص فيه كامل الحرص ألاّ يصف الكتاب إلاّ بعد التأمل الدقيق، وبعد البحث عنه في مجال المطبوعات إنْ طبع، ويقوم بالمقابلة أحياناً فإذا تعذّر عليه معرفة الحقيقة أوشك في النسبة فإنّه يخبر القارىء بذلك ليجدد البحث عساه أن يصل إلى مالم يصل إليه هو، وتلك ميزة لا تنسى للسيد محمد العابد الفاسي رحمه الله إلا أنني لاحظت أنه قد توفي قبل أن يتم عمله هذا، وقبل أن يُدخل عليه تعديلات فنية تجعله سهل التناول وقريب الاستجابة.

وحيث إنَّ الكتاب قد طبع بعد وفاته فإنَّه في حاجة إذا طبع مرة أخرى إلى تصحيح كثير من الأخطاء المطبعية التي وردت فيه، وإلى التنبيه على بعض الإضافات الموضوعية التي تيسر لمن بعده الوصول إليها، المتعلقة بتحقيق اسم الكتاب أو بتحقيق اسم المؤلف أو بمعرفة مؤلف كتاب سجل على أنه لمؤلف مجهول أو غير ذلك.

وسأحاول فيما يأتي أن أُقدم بعض التنبيهات المشتملة على نماذج من التصحيحات والتصويبات الضرورية التي يمكن تلافيها في المستقبل، وأن أنبه على بعض ما يمكن أن يوظفه القارىء إذا قرأه في وضعه الحالي:

التنبيه الأول

فهرس مخطوطات خزانة القرويين لمحمد العابد الفاسي يحتوي على أربعة أجزاء سار فيها وفق ترتيب الدفتر الأصلي من غير مراعاة فنون ولا أسماء أعلام ولا حجم أوراق.

وهو لم يستوف جميع ما في الدفتر العام، وإنما بلغ إلى الرقم ١٧٢٧ موزعاً على الشكل التالي:

الجزء الأول من ١ إلى ٥٠٠.

الجزء الثاني من ٥٠٠ إلى ٨٧٥.

الجزء الثالث من ٨٧٦ إلى ١٣١٤.

الجزء الرابع من ١٣١٥ إلى ١٧٢٧.

وقال في أثناء حديثه عن هذا الرقم الأخير: «إنه في الدفتر العام يبتدىء بدلائل الخيرات». ويبقى التسجيل مستمراً إلى الرقم ١٧٥٣ الذي هو السنوسي محمد بن يوسف الإمام أبو عبدالله التلمساني الولادة والوفاة. ويمتد الترقيم إلى ١٩٥٨ الذي هو شعب الإيمان، وهنا ينتهي ما رقم في الدفتر إلى أن يزاد عليه في المستقبل إن عثر على شيء إن شاء الله».

وقد عُثِر على مخطوطات فأضيف بعضها إلى الدفتر المذكور في حياة الفاسي رحمه الله، وأضيف بعضها في أثناء إشرافنا على هذه الخزانة الأصيلة، بحيث بلغ العدد الآن ٢٠٣٥.

التنبيه الثاني

في الخزانة عدد من الملفات والأوراق المختلطة التي يعبر عنها بالخروم، وهي غير محصورة العدد ولا النوع، ونعمل من أجل التعرف عليها وضمّ ما يناسب منها إلى بعضه بعضاً فتكتمل أحياناً منها كتب أو يقرب اكتمالها، وحينئذ ندمجها في الدفتر العام وهذا ما يفسر قول السيد محمد العابد الفاسي أن الرقم الأخير ينتهي به الدفتر إلى أن يزاد عليه في المستقبل إن عثر على شيء إن شاء

الله.

وهذه الخروم بحاجة إلى دراسة ميدانية من المختصين، وقد استطعت بفضل الله أن أحدد كثيراً من محتوياتها وأن أدل زمرة من الباحثين الجامعيين على ما توصلت إليه، فقدموا حول ذلك أطروحاتهم، وأثروا بأبحاثهم الدراسات الإسلامية واللغوية، وعثرت فيها على أشياء نادرة وقيّمة. منها شذرات من كتاب الصلة لصلة ابن بشكوال، تأليف أبي جعفر أحمد بن الزبير، المتوفى سنة ثمان وسبعمائة هجرية، نسخت في عهد مؤلفها، وعليها بعض الإضافات بخطه، وهي النسخة التي وجدت منها أوراق نشرها ليفي بروفنسال(١).

ومنها الروض المريع في صناعة البديع، تأليف أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي المراكشي المعروف بابن البناء العددي، المتوفى سنة ٧٢١ هجرية(٢).

ومنها شرح ابن الإفليلي لديوان المتنبي، وهي نسخة عتيقة نادرة الوجود، إلا أنها متلاشية، ويستفاد منها مع ذلك، وقد قدم حولها أحد الباحثين بجامعة سيدي محمد بن عبدالله بفاس رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا(٣).

ولم يتناول الفاسي رحمه الله فهرسة هذه الخروم، وسنعمل إن شاء الله على إنجاز ذلك، مع الحرص على إضافة جزء خامس للفهرس الذي شرعنا فيه منذ أشهر، ليتم وصف كل ما يحتوي عليه الدفتر العام. وإنا لنرجو أن يوفقنا الله إلى تحقيق هذا العمل.

التنبيه الثالث

تبيّن لنا بعد الاطلاع على الفهرس المذكور أن الفاسي رحمه الله كان يبذل مجهوداً كبيراً في التعريف بالكتب، ويحرص في غالب الأحيان على تبليغ بعض محتوياتها للقارئ، وعلى إفادته بكل ما يساعده على التمكن من المعرفة النافعة.

ومن المعلوم أن للزمن دوراً فعالاً في إظهار ما غاب عن السابقين، ومن ذلك مثلاً ما يمكن أن يضاف من المعلومات إلى هذا الفهرس المفيد، ويتجلى بعضه فيما يأتي:

أ - في التحقق من نسبة كتاب إلى مؤلفه الأصلي بعد أن كان مسجلاً باسم مؤلف آخر، ويظهر ذلك مثلاً في التفسير المسجل برقم ٩٣٥ المنسوب للبلنسي، فقد كتب الأستاذ الفاسي عنه ما يأتي: هذا الكتاب ربما كان من تأليف محمد بن علي الاوسي الغرناطي المتوفى سنة ٧٨٢ هـ. ولم نتمكن من معرفة الحقيقة، إذ ضاعت الورقة الأولى منه، وذكر لفظ البلنسي في وثيقة الوقف، والتفسير المذكور لا يتتبع صاحبه سائر ألفاظ القرآن الكريم، وتغلب عليه النزعة الصوفية، وينقل عن كثير من أعيانها فزد فيه تحقيقاً».

وقد يسّر الله لنا بعد التأمل فيما كتب الفاسي، وبعد قراءة هذا التفسير قراءة إمعان وتبصر، وبعد وجود نصوص فيه منقولة عن أعلام عاشوا في أواخر القرن التاسع الهجري، أنه كتاب «اللباب في مشكلات الكتاب» للفقيه أبي عبدالله محمد بن علي بن محمد الشطيبي الأندلسي المتوفى سنة ٩٦٣ هـ(٤) وهو كتاب يظن أن مؤلفه قد أملاه فكتبه تلاميذه عنه بتعابير متقاربة يحصل بعض الاختلاف اللفظي فيها، أو أنه كتبه مرتين حسب ما هو معروف لدى بعض المؤلفين، ولهذا فأنا أرى أن هذه النسخة المذكورة شبيهة بالنسخة الموجودة بخزانة تطوان المسجلة برقم ٢٨٩ حسب مقالة نهايتها في فهرس هذه الخزانة، وقريبة من النسختين

الموجودتين منه بخزانة القرويين المسجلتين برقم ٥٢ ورقم ٧٨٣.

ب -تعرُّف مؤلف كتاب وضع ضمن الكتب المجهولة المؤلف مثلما هو الحال بالنسبة إلى شذرات من كتاب «نزهة القلوب» المعروف بغريب القرآن تأليف أبي بكر محمد بن عزيز السجستاني المتوفى سنة ٣٣٠ هـ(٥) فقد لاحظنا أن هذه الشذرات مسجلة برقم ١٤٧٩ من غير معرفة مؤلفها، ولكن ظهر لنا بعد مقارنتها بغيرها أنها للسجستاني، وتأكد لنا ذلك بعد الاطلاع على نسخة من الكتاب نفسه مسجلة بالخزانة ذاتها ضمن مجموع يحمل الرقم ٩٤٠ من صفحة ١٤١ إلى صفحة ١٧٦.

وقد لاحظنا أن هذا الكتاب رغم شهرته واهتمام كثير من الباحثين به وإعادة طبعه فانه كان بحاجة إلى إعادة تحقيقه والعمل على تجديد ترتيبه وتنسيقه وقد قمنا بذلك بغية الإفادة وتيسيراً لتناوله، وهو الآن معد للطبع إذ تكلفت دار المعرفة بالدار البيضاء بطبعه ونشره وتوزيعه، وقد قلت في مقدمة تحقيقه ما يأتي:

«قيمة كتاب نزهة القلوب في الميدان التفسيري واللغوي تأتي من أمرين: الأمر الأول من كفاية مؤلفه وتحقيقه وتدقيقه في غالب الأحيان، وحرصه على أن يستفيد من الذين سبقوه بحيث يشعر من يطالع كتابه هذا رغم إيجازه أنه يستوعب دراسة عالم جليل له خبرة بموضوعه، وله دراية كبرى بقواعد اللغة وأصول علم التصريف.

الأمر الثاني مرجعه إلى أن المؤلف قد كان يعرض على أستاذه أبي بكر ابن الأنباري ما كتبه ويستشيره فيما ألفه، ويستمع إليه في تصحيح بعض ما جاء به، وقد قضى في ذلك نحواًمن خمس عشرة سنة. ولا يخفى على الدارسين لتأريخ علم العربية ما لأبي بكر ابن الأنباري من الفضل على اللغة العربية وعلى فهم مضامينها(٦).

وأشار بروكلمان في كتابه تأريخ الأدب العربي(٧) إلى العلاقة الرابطة بينه وبين أستاذه وأشار إلى كتاب له اسمه الاشتقاق وإلى هذا الكتاب المسمى «نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن» أو «نزهة القلوب في تفسير كلام علام الغيوب» وقد ذكر نسخه المتعددة في مختلف مكتبات العالم، إلا أنه لم يذكر النسختين اللتين أشرنا إليهما سابقاً بخزانة القرويين».

ج - تحديد زمن المؤلف المجهول وإن لم نستطع تعرُّفه نهائياً كما هو الحال بالنسبة لسفر مبتور من كتاب في غريب القرآن والحديث مسجل في الدفتر العام برقم ١٧٢٦، وأهمل تسجيله داخل الفهرس بسبب خلط وقع في أثناء الطبع سنشير إليه في تنبيه آخر.

إن هذا الكتاب - حسب ما يظهر من قراءة ما وجدنا منه - معجم يتكون من أجزاء متعددة، تتبع فيه مؤلفه كثيراً من الألفاظ القرآنية والحديثية ليفسرها ويعلق عليها وفق ما ورد عند المفسرين ومؤلفي كتب معاني القرآن وغريب الحديث، ثم ليضيف إلى ذلك من عنده بعض التأويلات التي يصل إليها، وكان يكثر النقول مما كتبه شَمِر بن حمدويه المتوفى سنة خمس وخمسين ومائتين ومما كتبه القاسم بن سلام المشهور بأبي عبيد صاحب غريب القرآن وغريب الحديث ومعاني القرآن ومما كتبه إبراهيم بن محمد بن عرفة المعروف بنفطويه زيادة على المشهورين في اللغة كالفراء والأخفش والزجاج وابن قتيبة وقطرب وأبي الهيثم وأبي عبيدة والأصمعي وابن الأنباري والأزهري وغيرهم.

والأزهري وغيرهم.

وطريقته في التأليف أنه بنى كتابه هذا على ترتيب الأحرف الأبجدية، ويسمي كل حرف كتاباً، فيقول مثلاً كتاب الهمزة، وكتاب الباء، وكتاب التاء وهلم جراً، ثم يقسّم كل كتاب إلى أبواب حسب إضافة عين الكلمة إلى فائها، فيقول مثلاً باب الهمزة مع الباء، وباب الهمزة مع التاء، وباب الهمزة مع الثاء إلى أخره.

وهو مسجل على أنه مجهول المؤلف، إلا أننا من خلال تتبعنا لمحتواه حددنا زمن تأليفه، مما يمكن مساعدة الباحثين فيما بعد على معرفة اسم ذلك المؤلف، فهو أحد تلامذة أبي منصور محمد بن أحمد الأزهري اللغوي الهروي المتوفى سنة سبعين وثلاثمائة(٨).

وذكر في كتابه أنه سمع من عالم اسمه أحمد القرشي ولعله أبو بكر أحمد الوراق القرشي الدمشقي المتوفى سنة خمسين وثلاثمائة(٩) وقد يكون المراد غيره إذ لا يمكن التحقق من ذلك إلا بعد تعرُّف المؤلف نفسه و المدن التي أقام بها أو رحل إليها، وذلك ما يمكن التوصل إليه إن شاء الله بعد مواصلة البحث الجاد.

التنبيه الرابع

يتعلق بالخلط الذي وقع في الطبع بين بعض الأرقام والكتب المنسوبة إليه ويخلو الجزآن الأول والثاني من هذا الخلط أما الجزآن الثالث والرابع ففيهما شيء من ذلك.

ففي الجزء الثالث ابتداء من الرقم ١٢٢٠ تضارب بين الأرقام التي تحملها الكتب في دفتر الخزانة وبين الأرقام بالفهرس المطبوع وذلك حاصل بسبب إضافة رقم ١٢٢١ وجعله رقماً لكتاب المرادي في شرح الألفية مع أن هذا الرقم قد أسقط من الدفتر العام وأدمج فيما قبله وصار مكرراً بحيث ينبغي لمن يريد معرفة الرقم الحقيقي للمخطوط داخل الخزانة ابتداء من هذا الرقم إلى آخر الجزء أن يسقط عدداً من الرقم المسجل فإذا أراد مثلاً أن يحصل على الكتاب المسمى «مراح الأرواح» لأحمد بن علي بن مسعود وهو كتاب في التصريف فسيجده مسجلاً في الفهرس برقم ١٢٢٢ مع أنه في الدفتر الأصلي مسجل برقم ١٢٢١ وهكذا دواليك. وتستمر هذه العملية أيضاً من أول الجزء الرابع إلى الرقم ١٣٢٨ حيث يكتب هذا الرقم مكرراً فينتهي بذلك هذا التساقط الحاصل بين الدفتر الأصلي وبين الفهرس المطبوع. إلا أنه في آخر هذا الجزء يحدث خلل آخر وذلك ناتج عن كون الكتاب في أثناء طبعه جعل الرقم ١٧٢٥ لكتاب علوم الحديث لابن الصلاح(١٠) مع أن هذا الرقم في الدفتر العام موضوع لجزء من الجامع الصحيح للبخاري كما جعل الرقم ١٧٢٦ لشرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني ليوسف ابن عمر الأنفاسي(١١) مع أنه في الدفتر العام مخصص لشذرات من الكتاب الذي أشرنا إليه في التنبيه الثاني المتعلق بغريب القرآن والحديث.

التنبيه الخامس

لاحظنا عند الاطلاع على ما كتبه المرحوم محمد العابد الفاسي في فهرسته المذكورة في أثناء التحدث عن الرقم الثاني والثمانين أنه خصه لسفرين من صحيح البخاري، السفر الأول يتعلق بالجزء الثالث والعشرين والرابع والعشرين من نسخة ثلاثينية والسفر الثاني يتعلق بالجزء الثلاثين وهو الأخير من النسخة نفسها، ولكننا عند مقابلة ما ذكره بالدفتر العام وجدنا أن هذا السفر الأخير ليس بهذا الرقم وإنما سُجّل منفرداً تحت

الرقم السابع والتسعين، مع الإشارة إلى أنه كان مسجلاً تحت الرقم الثاني والثمانين وأعطاه جميع المواصفات التي ذكرها المؤلف في أثناء التحدث عنه في الرقم السابق، وقد جاء في وصفه آنذاك أنه الجزء الأخير من نسخة ثلاثينية، وأنه يمثل آخر الكتاب، وأنه «علقه لنفسه ولمن شاء بعده العبد الفقير المعترف بالتقصير الراجي رحمة ربه أحمد بن علي بن سعيد الشهير بابن حجر، غفر الله ذنبه ونجّاه من سقر، وكان الفراغ منه نهار الأحد تاسع عشر شهر الله المحرم الحرام سنة خمس وخمسين وثمانمائة والحمد لله على سوابغ نعمه».

وعلق الفاسي على ذلك في أثناء التحدث عن الجزء نفسه بالرقم السابع والتسعين، فقال: «إنهم قد قيدوا في الدفاتر المذكورة على أنه بخط الحافظ ابن حجر، والواقع أنه لا يصح ذلك، فإن تاريخ نسخه كان بعد وفاة ابن حجر الحافظ فلا يعقل ما ذكروا»(١٢)

وأنا أقول: إن الناسخ ربما كان يحمل اسم ابن حجر نفسه فكان ذلك سبباً لما ذكره هؤلاء وليس بالبعيد أن يكون هناك رجل معاصر لابن حجر ويحمل اسمه، ويهتم اهتمامه، فكان الناس إذا أرادوا أن يمدحوه لقبوه بما كان يلقب به الحافظ ابن حجر رحمه الله، نظراً لما كان له من الفضل والشهرة والاهتمام بالحديث.

التنبيه السادس

الأرقام المذكورة في الفهرس لاتعني أنها توازي عناوين الكتب لأن بعض الأرقام تمثل مجموعاً يحتوي على أكثر من كتاب كما هو الحال مثلاً في الرقم ١٥٣١، فهو يشتمل على تسعة كتب.

الأول منها «نوافح الورد والعنبر والمسك الداري بشرح آخر ترجمة صحيح البخاري» تأليف العلاّمة عبدالقادر بن أحمد الكوهن.

والثاني خاتمة كتاب «سفر السعادة» للإمام محمد بن يعقوب الشيرازي الفيروزابادي.

وبين الجزأين المذكورين قصيدتان؛ الأولى لامية ابن الوردي الشهيرة التي مطلعها:

اعتزل ذكر الأغاني والغزل
وقل الفصل وجانب من هزل

والثانية لابن زريق مطلعها:

لا تعذليه فإن العذل يؤلمه
قد قلت حقاً ولكن ليس يسمعه
جاوزت في عذله حداً يضرّ به
من حيث قدرت أن العذل ينفعه
فاستعمل الرفق في تأديبه بدلاً
من عنفه فهو مضنى القلب موجعه.

والثالث «الشهاب في الحكم والآداب» لأبي عبدالله محمد بن سلامة القضاعي.

والرابع «عدة المريد الصادق من أسباب المقت في بيان الطريق المقصد وحوادث الوقت» لأبي العباس أحمد بن أحمد زروق البرنسي الفاسي.

والخامس «مناظرة في علم الكلام» لمحمد بن يوسف السنوسي.

والسادس «المقدمة» للشيخ السنوسي أيضاً.

والسابع «الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون» لأبي زيد عبدالرحمن بن محمد الجزائري الأخضري.

والثامن «تعليق على أرجوزة ياقوتة البيان» لأبي عبدالله محمد الصغير بن الحاج محمد الأفرني.

والتاسع «قرة العين بشرح ورقات إمام الحرمين» لأبي عبدالله محمد بن محمد بن عبدالرحمن الحطاب.

ولأنّ بعضها الآخر قد يمثل جزءاً فقط من نسخة وزعت أجزاؤها على أرقام مختلفة

ونمثل لذلك بنسخة جيدة من كتاب «نسيم الرياض في شرح شفا القاضي عياض» لشهاب الدين الخفاجي، فهي موزعة على أرقام متعددة، إلا أنها تفقد قسطاً من أول أجزائها.

هذه النسخة مكتوبة بخط مشرقي جيد وعند مقابلتها بالنسخة التي طبعت باستنبول عام ١٢٦٧ هـ تبين لنا أن المجلد الأول منها مسجل برقم ١٧٣٥ وهو الذي يوافق أوله بعضاً من الفصل الخامس المتعلق بقسمه تعالى وهو فصل من الباب الأول من القسم الأول من كتاب الشفا وينتهي عند الفصل المتعلق بقوله: وأما حسن عشرته الموجود بالصفحة التاسعة والستين من الجزء الثاني المطبوع وهو فصل من الباب الثاني من القسم الأول كما تبين لنا أن مجلداً من مجلدات ثلاثة- اثنان منها لا يرجعان إلى هذه النسخة - مسجل تحت الرقم التاسع والثمانين والألف وهو الذي به الفصل المذكور. كما تبين لنا أن المجلد المسجل برقم ١٨٥٤ يوافق أوله بعضاً من الفصل المتعلق بأسمائه صلى الله عليه وسلم بالصفحة ٤٥٤ من الجزء الثاني المطبوع، وهو أحد فصول الباب الثالث من القسم الأول، وينتهي عند الفصل المتعلق بخصائصه صلى الله عليه وسلم بالصفحة ١٦٧ من الجزء الثالث المطبوع، ثم يأتي تسلسل الكتاب إلى نهايته في الأرقام التالية ١٩٩٢ - ١٧٤٨ - ١٧٥٧ - ١٧٤٩.

وهكذا نجد أن نسخة واحدة وزعت على أرقام سبعة بغير ترتيب طبيعي مما يدفع الباحثين إلى التفكير في إعادة النظر بطريقة ترقيم هذه الخزانة ليعم نفعها ولتستمر في أداء مهمتها العلمية التي اشتهرت بها عبر مرور الأزمان والتي مازالت إلى الآن تحملها بكل أمانة وفخر واعتزاز.

□ □ □

الحواشي :

١ - نشرنا بحثاً للتعريف بها بمجلة المناهل العدد ٣٣، ديسمبر ١٩٨٥. والعدد ٣٤، يوليو ١٩٨٦.
٢ - هناك دراسة حوله بكتابنا الذي نشرناه تحت عنوان «من أعلام الفكر والأدب في العصر المريني» طبعة النجاح الجديدة ١٩٩٢.

٣ - قدمنا حول هذه النسخة بحثاً نشر بمجلة الناشر العربي العدد التاسع ١٩٨٧. هذا ويمكن تتبع بعض ما عثرنا عليه بالكتاب الذي دوّن ندوة المخطوطات العربية في الغرب الإسلامي التي أقامتها مؤسسة الملك عبدالعزيز ال سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية بالدار البيضاء بتاريخ أبريل ١٩٨٨.

٤ - انظر ترجمته بكتاب دوحة الناشر لابن عساكر. وانظر تفصيل الحديث عن هذا التفسير بالبحث الذي شاركت به في الندوة المخصصة للمخطوطات العربية في الغرب الإسلامي التي أقامتها مؤسسة الملك عبدالعزيز آل سعود المشار إليها في التعليق السابق والتي طبعت بمطبعة النجاح الجديدة تحت الرقم الايداعي ٩٠٦/ ١٩٩٠.

٥ - انظر ترجمته ببغية الوعاة للسيوطي، القاهرة: مطبعة السعادة، ص ٧٢.

٦ - الوافي بالوفيات ٤ : ٩٥.

٧ - ٢ : ٢١٦، تعريب عبدالحليم النجار.

٨ - انظر معجم الأدباء لياقوت الحموي ١٤: ١٦٤ وبغية الوعاة للسيوطي ص ٨ .

٩ - انظر معجم الأدباء لياقوت الحموي ٤: ٢٣٨.

١٠ - الكتاب المذكور بالسجل العام تحت الرقم ١٧٣٨.

١١ - الكتاب المذكور بالدفتر العام تحت الرقم ١٧٣٧.

١٢ - كانت وفاة الحافظ ابن حجر عام ٨٥٢ هـ.

الفائق

في معرفة الأحكام والوثائق

لأبي عبدالله محمّد بن راشد القفصي - ٧٣٦هـ

عرض الدكتور محمّد أبو الأجفان

مدير قسم الفقه و السياسة الشرعية

المعهد الأعلى للشريعة - جامعة الزيتونة

انتصبت الدولة الحفصية بتونس سنة ٦٠٣هـ عندما بويع في قصبتها المؤسس للدولة أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص (١) (- ٦١٨هـ) وورثت تونس في هذا العهد ما خلفته حضارة القيروان و حضارة المهدية الأفلتان، و عرفت فترات من الاضطرابات السياسية و الفتن و الصراع على الحكم، و استقبلت كثيراً من الوافدين الأندلسيين الذين كان منهم العابرون إلى الشرق، و منهم المستطيبون للإقامة بهذا القطر التونسي العاملون على امتزاج الثقافة الأندلسية بالثقافة التونسية.

ويهمنا من هذا العهد الحفصي أن نشير إلى الحركة العلمية في الفترة التي عاش فيها مؤلف الكتاب موضوع مقالنا، وهي تبدأ من منتصف القرن السابع، وتنتهي بوفاته سنة ٧٣٦ هـ، وقد حكم تونس فيها عشر أمراء أولهم أبو عبدالله محمد بن أبي زكريا الحفصي (٦٤٧ - ٦٧٥ هـ) وآخرهم أبو بكر أبو يحيى بن أبي زكريا(٢) (٧١٨ - ٧٤٧ هـ)، وكانت سنوات حكمها من أحفل سنوات هذا العهد الحفصي وأزهره، وقد عرفت تونس في هذه الفترة نشاطاً علمياً مزدهراً، وكان لجامع الزيتونة إشعاعُه في مختلف فنون المعرفة، وكانت المدارس(٣) تؤدي مهمتها الثقافية، وتزدهر الحركة العلمية فيها بفضل إحسان بعض الأمراء والأميرات وتشجيعهم. ومن أشهر هؤلاء الأميرة عطف والدة السلطان أبي عبدالله محمد بن أبي زكريا التي بنت جامع التوفيق والمدرسة التوفيقية(٤).

ونال علم الفقه النصيب الأوفر من اهتمام العلماء: تدريساً وتأليفاً وإفتاءً. وعلى أيديهم تخرجت طبقات الفقهاء والقضاة والشهود، وسائر أصحاب الخطط الشرعية. وكان المذهب السائد هو المذهب المالكي، بحيث كانت تنتصب بتونس إحدى مدارسه الكبرى التي تمدّ يد التعاون العلمي إلى مدارسه الأخرى بمصر والمغرب الأقصى والأندلس،

ومظاهر ذلك كثيرة، نذكر منها رحلة الطلبة التونسيين إلى المركز المصري المالكي، واستقبال علماء تونس لأعلام الجزائر وتلمسان وفاس وغرناطة، وتبادل الرسائل والفتاوى والمؤلفات والإجازات وخوض مجال المناظرة في مسائل الخلاف الفقهي العالي، والتعاون في مجال الاجتهاد في المسائل المستجدة.

ومن مظاهر تضافر جهود المدرستين المالكيتين المصرية والتونسية في خدمة المذهب رواج المصنفات المصرية بتونس كالجواهر الثمينة للجلال عبدالله بن شاس (- ٦١٦ هـ) والمختصر الفقهي لأبي عمرو عثمان بن الحاجب (- ٦٤٦ هـ) والذخيرة والفروق لأبي العباس أحمد القرافي (-٦٨٤ هـ).

أما مختصر ابن الحاجب الفقهي فقد انكب ثلاثة من أعلام تونس في تلك الفترة على شرحه تقديراً لأهميته، إذ إنّه من المصنفات المعتمدة(٥) وقد جمع من أمهات المالكية القديمة أربعين ألف مسألة، الشارحون هم: أبو عبدالله محمد بن راشد القفصي (- ٧٣٦ هـ) وشرحه يسمى «الشهاب الثاقب في شرح مختصر ابن الحاجب»(٦). وأبو عبدالله محمد بن عبد السلام الهواري(- ٧٤٩)، وقد وصف ابن فرحون شرحه، فقال: «وقع عليه القبول، فهو أحسن شروحه»(٧). وأبو عبدالله محمد بن هارون الكناني (- ٧٥٠ هـ) الذي بلغ رتبة الاجتهاد في المذهب كما قال الإمام محمد بن عرفة (- ٨٠٣ هـ)(٨)

وممن نوه بالحياة العلمية بتونس في هذه الفترة أبو البقاء خالد البلوي الأندلسي الذي قال عن لقائه لأعلام تونس: «ظللت ألقى أكابر الأولياء، وأخذ عن العلماء الأتقياء»(٩) وأبو عبدالله محمد المقري التلمساني (- ٧٥٩) (الجد) الذي قال: «لقيت بتونس غير واحد من العلماء والصلحاء، يطول ذكرهم»(١٠).

ابن راشد القفصي

في هذا العهد الذي أشرنا إلى ملامحه العامة ولد أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن راشد البكري(١١) بمدينة قفصة(١٢) فنسب إليها وعرف بهذه النسبة، وبها نشأ وتعلم، ثم رحل إلى العاصمة الحفصية تونس فحظي بالأخذ عن مشاهيرها في فنون العلم: الفقه والأصول والحديث والعربية وغيرها، وقال عن نفسه: «قرأت العربية والفرائض والحساب وأدركت بتونس جملة من النبلاء وصدوراً من النحاة والأدباء، ثم تشاغلت بالأصول والفقه زماناً»(١٣).

وتشاغله بالأصول والفقه مع شغفه بهما الشغف الكبير أفضى إلى التعمق فيهما، والبروز في مجالهما والتأليف في مسائلهما.

وكانت رحلته إلى مصر من أهم روافد تكوين شخصيته العلمية، فقد سعد بالأخذ بالإسكندرية عن الناصر الأبياري والناصر ابن المنير والضياء بن العلاف وغيرهم، وسعد أكثر بالأخذ في القاهرة عن الشهاب القرافي الذي لازمه، فأفاده خاصة في أصول الفقه ومقاصد الشريعة ومنحه الإجازة وأذن له في التدريس، وكان له تردد على دروس التقي ابن دقيق العيد والشمس الأصبهاني وغيرهما(١٤).

وفي سنة ٦٨٠ هـ أدّى أبو عبدالله محمد بن راشد القفصي فريضة الحج ثم رجع إلى وطنه، فولي قضاء قفصة(١٥) ثم قضاء الجزيرة القبلية، ولكن لم تطل مدة ولايته هذه

الخطة لتألب الخصوم عليه، فنزل بتونس، فلم يصفُ له الجو بها، إذ عكره عليه بعض المنافسين له مثل القاضي أبي إسحاق إبراهيم بن عبد الرفيع (- ٧٣٣ هـ) الذي منعه من الجلوس للوعظ، وكان ابن راشد يشعر بتفوقه العلمي عليه ويقول: «أتمنى أن أجلس أنا وهو للمناظرة حتى يظهر الحق ومن هو المقدم في العلم»(١٦)

ومن تأثير هذه المنافسة الحد من انطلاق شهرته، لكن مؤلفاته تشهد برتبته ومكانته المتميّزة.

ولئن كان جل مؤلفاته في الفقه إذ ألف فيه ثلاث موسوعات(١٧) ومختصرين(١٨) فإنه ألف في الأصول «تلخيص المحصول» و«نخبة الواصل في شرح الحاصل»، وفي التفسير «اختصار تفسير الفخر الرازي»، وفي العربية: «المذاهب السنية»، وفي تعبير الرؤيا «المرقبة العليا».

وكانت وفاته في ٢٠ جمادى الثانية سنة ٧٣٦ هـ ودفن بمقبرة الجلاز من مدينة تونس.

«الفائق في معرفة الأحكام والوثائق»

أحد الموسوعات الفقهية التي ألفها ابن راشد القفصي، وقد سلمت بعض نسخه من عوادي الدهر، فوصلنا كاملاً، ولم يكتب له بعد أن يلقى عناية المحققين ليعدّوه للنشر، حتى يعم النفع به.

ألفه صاحبه بعد عودته من رحلته العلمية إلى مصر، مليء الوطاب واسع المعرفة بالأحكام الفرعية والقواعد الأصولية والفقهية، وكان في فترة تصنيفه يعاني ظروفاً قاسية مبتئساً مما يسود بيئته القفصية من جهل وحسد، وقد أشار إلى ذلك في مقدمة هذا الكتاب، ومما قال عن هذه البيئة وأهلها: «دأب أهلها نخلٌ يؤبرونها وغلة ينتظرونها، وأرض للزراعة يثيرونها، طالب العلم بينهم كالمصباح في الصباح، وكالقبيحة بين الملاح، والعجماء بين الفصاح، وغيره المرموق في الغدو والرواح، والفائز بالمعلى عند إجالة القداح، كالبدر يرقب خفيا، ويترك عند الكمال والاتضاح، ولله در القائل:

بلد الفلاحة لو أتاها جرول
أعني الحطيئة لاغتدى حراثا
تصدى بها الأفهام بعد صقالها
وترد ذكران العقول إناثا(١٩)

وبعد أن يتحدث عن نار الحسد التي إكتوى بها يقول: «ولما تمكنت الإحن، وترادفت المحن، ولم أتمكن من الانتقال لضعف الحال وكثرة العيال، وخشية أن تنفلت مني الرسوم، وأن يلتحق بالمجهول المعلوم، جمعت كتاباً ليكون تذكرة لنفسي، وإرشاداً لغيري»(٢٠) يعني كتابه «الفائق» الذي نُعَرِّف به. وهو عندما يذكر شيخه الشهاب القرافي يترحم عليه بمثل قوله: «قدس الله روحه ونوّر ضريحه» مما يؤكد أن تأليف الكتاب كان بعد سنة ٦٨٤ تاريخ وفاة القرافي، ولا نجد في آخر الكتاب ذِكْراً لتاريخ الفراغ منه.

وعنوان الكتاب «الفائق في معرفة الأحكام والوثائق» من وضع مؤلفه واختياره، وقد جرى الناس بعده على تسميته بالفائق اختصاراً.

وهو يعرفنا في المقدمة بموضوع كتابه فيقول: «خصصته بالوثائق والأحكام، إذ بها يحفظ النظام، ويندفع الضرر العام، وينتفع الخاص والعام، وقد أوردت من نصوصها فوائد، وألحقت النوع بمثله، وأضفت الشكل إلى شكله، سالكاً في جميع ذلك سبيل الإيجاز والاختصار وترك التطويل، وسميته بالفائق في معرفة الأحكام والوثائق، ليعلم عند قراءته أنه كتاب طابق مسماه ولفظ يوافق معناه».

لقد حرص ابن راشد أن يثبت في عنوان كتابه العبارتين المشعرتين بالموضوعين الكبيرين المترابطين لهذا الكتاب: الأحكام والوثائق.

أما الأحكام فهي مسائل المعاملات الشاملة لأبواب النكاح وما شاكله، والبيوع والشفعة والإجارة والشركات، ونحو ذلك مما ينظم المعاملات الجارية بين الناس، والأقضية والشهادات، وأنواع الحدود والتعازير والوصايا وسائر الهبات، والفرائض المتعلقة بقسمة التركات.

وأما الوثائق فيعني بها العقود التي يسجلها الشهود العدول المعروفون بالموثقين. وكان الطلبة يهتمون بعلم التوثيق(٢١) ويدرسون مسائله، إذ يؤهلهم لخطة الإشهاد، ويعرفهم بما ينبغي أن يراعى عند كتابة كل وثيقة، ولهذا العلم صلة وثيقة بالقضاء لحاجة القُضاة إلى تدوين ما يصدر عنهم، ولاعتمادهم الوثائق عند النظر في القضايا والنوازل.

وكان للأندلسيين أكبر الاهتمام بهذا العلم الذي ازدهر على أيدي كثير من علمائهم، وظهرت فيه مؤلفاتهم المفيدة الدالة على مدى عنايتهم بهذا الفن، وقد تواصل اعتمادها بتونس وبلاد المغرب حتى بعد سقوط الفردوس المفقود وأفول نجم الحضارة الأندلسية.

وهناك جانب من الفقه الإسلامي لا يشمله كتاب «الفائق» وهو جانب العبادات والجهاد والأيمان والنذور والزكاة والصيد، وهذا الجانب يتعلق بحق الله الخالص، وينظم العلاقة الروحية بين العبد وربه، ولا يتدخل القضاء في مجاله بصفة مباشرة في الغالب.

وأما غاية الكتاب وجدوى دراسته فقد لخصهما في قوله السالف: «بها يحفظ النظام، ويندفع الضرر العام، وينتفع الخاص والعام» فالأحكام تميّز الحلال من الحرام، وتوضح المنهج الشرعي في ميدان التعامل بين الناس، ويطبقها الحكام والقضاة عند فصل النزاع وإصدار الحكم الملزم للمُتداعيين.

والوثائق تحقق حقوق الأطراف في تعاملها، وتنص على الالتزام وعلى الشروط، وتضبط كل ذلك بصيغ في منتهى الدقة والوضوح، وتكون المرجع عند الاختلاف، إذ تعرف بما لكل عاقد من حق وما عليه من واجب، وفي ذلك حفظ لنظام المجتمع، وقطع للشغب والتنافر والتباغض.

وهكذا تكون للفائق أهميته في تكوين ملكة القضاة والمفتين والموثقين وإثراء زادهم الفقهي.

وقد مهد ابن راشد لكتابه بأبحاث هامة أودعها مقدمته وجعلها مدخلاً لأبواب الفائق ومسائله. وعناوين هذه الأبحاث كما يلي:

«فضيلة العلم»، «فضيلة التعلم»، «فضيلة التعليم»، «تقسيم الأحكام»، «بيان الحِكَم التي شرعت الأحكام لها»، «بيان تصرفات المكلفين في الأعيان»، «صفة الموثق وما ينبغي له أن يحذقه من العلوم»، «بيان اصطلاحات يحتاج إليها في هذا الكتاب».

فالأبحاث الثلاثة الأولى عرّف فيها بفضل العلم وأهله من المعلمين والمتعلمين مستنداً إلى ما جاء في ذلك من الآيات والأحاديث والآثار، وما تلقاه عن مشيخته من تأويل وآراء.

والبحث الرابع مستمد من علم أصول الفقه.

والخامس تعرض فيه إلى المصالح وأنواعها وارتباطها بالأحكام الشرعية، فكان إلى

مقاصد الشريعة أقرب.

والسادس أرجع فيه كل التصرفات إلى: النقل والإسقاط والقبض والإلزام والخلط وإنشاء الملك والاختصاص والإذن والإتلاف والتأديب والزجر، وأنواع الإجارة تندرج تحت النقل بعوض، وأنواع الهبة تندرج تحت النقل بغير عوض، وبهذا يبين ابن راشد أصول المعاملات وينوعها ليبني عليها مسائل الكتاب الكثيرة.

والبحث السابع يمهد للوثائق الموزعة على أبواب الكتاب، فيعطي معلومات عامة على المستوى النظري، أما نصوص الوثائق المنثورة في الكتاب فتمثل الجانب التطبيقي في علم التوثيق. وهذا البحث الممهد يدلنا على أصالة هذا العلم في ثقافتنا الإسلامية إذ أشارت الآيات والأحاديث إلى الشهادة وأثرت عن الإمام مالك وغيره أقوال حول شروط الموثق وغيرها.

والبحث الثامن يقدم فيه المؤلف مفاتيح رموز كتابه التي استعملها جرياً على نهج الاختصار، فيشير الرمز **(د)** مثلاً إلى المدونة، و**(ص)** إلى التبصرة للخمي، و**(ر)** لتنبيه ابن بشير، و**(ط)** للنهاية والتمام للمتيطي، و**(ج)** لجواهر ابن شاس(٢٢) و**(ب)** لمختصر ابن الحاجب الفرعي، و(العمل) لما جرى به عمل الأندلسيين.

وأما مصادر ابن راشد في «الفائق» فهي كثيرة، وجلها من أمهات المذهب المالكي المعتمدة، فزيادة على الكتب التي أسلفنا رموزها تجد المصنفات الكثيرة مثل: النوادر والزيادات(٢٣) لابن أبي زيد القيرواني، وأحكام ابن سهل القرطبي(٢٤)، ومفيد الحكام لابن هشام، وفقه الصدقات للقنطري، ومسائل السماسرة(٢٥) لأبي العباس الإبّيَاني التونسي. والطرر لابن عات، والمقدمات لابن رشد(٢٦) والقبس لابن العربي(٢٧) والاستغناء لابن عبدالغفور، وشرح التلقين للإمام المازري.

وبالجملة فإن مصادر ابن راشد متنوعة، وأصبح بعضها من الكتب النادرة، والبعض الآخر أصبح من المفقودين ومن هنا يكتسب «الفائق» أهمية بالغة.

هذا وقد كان لابن راشد تنظيم بارع في كتابه، فقد سمى أبوابه الكبرى بالكتب جاعلاً تحتها أبحاثاً وفروعاً، رابطاً الفروعَ بقواعدها وأصولها. قال موضحاً منحاه في هذا المصنَّف: «نحوت فيه منحَى المتأخرين في الحصر وضبط القواعد وتخريج الفروع عليها، لينتفع بذلك المدرس والمفتي والقاضي والموثق، وكيفية ما سلكته من ذلك في مسائل النكاح مثلاً لابد أن تكون (أي المسائل) داخل العقد أو خارجه، فما كان من ذلك يقع خارج العقد جعلتها في شطر وسميتها باللواحق، وماكان منها يقع داخل العقد ذكرته في شطر، وسميته بالأركان، فجعلت كتاب النكاح على شطرين، الأول في الأركان، والثاني في اللواحق، بيان ذلك أن الأركان هي الزوج والزوجة والولي والصداق والصيغة، فذكرت ما يتعلق بكل ركن فيه، وأما اللواحق فمثل الوليمة والرد بالعيب واختلاف الزوجين وما أشبه ذلك، وأفردت لكل من ذلك فصلاً، وكذلك فعلت في جميع كتب الفقه إلى آخر الكتاب، ما عدا النفقات والحضانه، فجعلت النفقات منحصرة في الموجب والمسقط، والحضانة نحو ذلك.

وإذا تأملت ذلك ونظرت بعين الإنصاف وجدتني قد ضبطت مذهب مالك ضبطاً لم أسبق إليه، لأن كل مسألة في الأنكحة أو

البياعات أو غيرها لابد أن تكون داخل العقد أو خارجه، ولا يأتي شيء خارجاً عن هذا الحصر».

ولئن توسع ابن راشد في عرض آراء فقهاء مذهبه المالكي فإنه أحياناً يشير إلى آراء فقهاء مذاهب أخرى ويرد عليهم مناصراً مذهبه باستعمال الحجة والبرهان، وهو يتعقب آراء بعض المؤلفين ليثبت ما يرى فيه الصواب.

كما أنه يناقش أحياناً بعض قضاة عصره من ذلك قوله: «رأيت بعض قضاة الإسكندرية حكم بتضمين السمسار(٢٨)، قال: لأنه من مصالح الناس لفساد الزمان، وهو خلاف نص المذهب، والمصلحة المرسلة إنما اعتبرها مالك في الصناع لأنهم يغيرون المتاع بصنعهم حتى يكاد يخفى عن مالكه، وذلك مفقود في السمسار والراعي».

ويشتمل هذا الكتاب على فتاوى ونوازل، الكثير منها أندلسي، ويشتمل على إفادات تتعلق بما جرى به عمل أصحاب الخطط كالقضاة والمحتسبين، وبه إشارات تعطي صوراً عن بعض الظواهر الاجتماعية.

النسخ الخطية للفائق

تتوافر من كتاب الفائق نسخ خطية بعضها كامل وبعضها أجزاء منه، منها نسخة بمكتبة آل ابن عاشور بضاحية المرسى: ٢٣١ - ٢٣٣ - ٢٣٤، ومنها أجزاء بمكتبة المرحوم عزالدين النيفر: ٣٠ - ٣١ - ٣٢ (٢٩) ومنها نسخ بدار الكتب الوطنية بتونس أصف منها النسخة الكاملة التي استعملتها في إعداد هذا العرض، وهي في خمسة أجزاء، أرقامها على التوالي: ١٢٢٩١، ١٢٢٩٢، ١٢٢٩٣، ١٢٢٩٤، ١٢٢٩٥. وهي من تحبيس المشير محمد الصادق باي ملك تونس على خزانة جامع الزيتونة المعمور في صفر سنة ١٢٩١ هـ. ثم آلت إلى دار الكتب الوطنية. كتبت بخط تونسي واضح مداده أسود وحليت العناوين ورؤوس المسائل باللون الأحمر، لم يذكر اسم الناسخ وتاريخ النسخ إلا في آخر الجزء الثاني: عمر بن محمد الوسلاتي بتاريخ ١٢٥١ هـ وفي آخر الجزء الخامس علي بن عبدالعزيز المليتي منشأ، الحمروني أصلاً، التونسي مسكناً وداراً، بتاريخ ١٢٣٧ هـ.

واختلفت الأجزاء في عدد الأوراق التي كانت من الحجم الكبير على النحو التالي: **ج ١** = ٢٨٤ ورقة، **ج ٢** = ١٧٤ ورقة تتخللها أوراق بيضاء، **ج ٣** = ٢١٩ ورقة، **ج ٤** = ٢٥٠ ورقة.

وأفاد الأستاذ جمعة الزريقي(٣٠) أن مكتبة جامعة قاريونس ببنغازي تتوفر على نسختين من هذا الكتاب: ٣٠١ و٣٢٨.

كما أفادني الأستاذ أبو القاسم محمد كرو أن بمكتبته الخاصة نسخة منه.

وهكذا تتوافر من هذا الكتاب المهم نسخ عديدة، تفيد كثيراً في إقامة نص سليم للفائق عندما تتجه همة أحد من المحققين للعناية بإعداده إعداداً علمياً للنشر وتوسيع نطاق الاستفادة من رواد ثروتنا الفقهية النفيسة.

□ □ □

الحواشي

١ - ابن الشماع، الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق الطاهر المعموري (تونس: الدار العربية للنشر، ١٩٨٤) ص ٤٨ - ٥٤.

٢ - ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، تحقيق محمد شمام (تونس: المكتبة العتيقة، ١٩٦٧) ص ١٣٤ وما بعدها.

٣ - انظر عن مدارس تونس الحفصية: المعموري، جامع الزيتونة ومدارس العلم، (تونس: الدار العربية للكتاب، ١٩٨٠) ص٧٩ وما بعدها.

٤ - ابن الشماع، الأدلة، مرجع سابق ص٦٣. ابن أبي دينار، المؤنس، مرجع سابق ص ١٣٥.

٥ - وصف ابن خلدون هذا المختصر بأنه «كالبرنامج للمذهب» المقدمة (القاهرة: دار المصحف) ص ٣٢٣.

٦ - انظر عن هذا الشرح: النيفر، ابن راشد القفصي، دراسات في اللغة والحضارة (تونس: وزارة الشؤون الثقافية، ١٩٧٥) ص ١١٦ - ١١٨.

٧ - ابن فرحون، الديباج، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور (القاهرة: دار التراث د.ت.) ١: ٣٣٠.

٨ - السراج، الحلل السندسية (الدار التونسية للنشر، ١٩٧٠) ١: ٣: ٥٩٨.

٩ - البلوي، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تحقيق الحسن السائح (المحمدية، المغرب: صندوق إحياء التراث الإسلامي) ١: ١٦٧. وكانت رحلة البلوي إلى تونس سنة ٧٤١ هـ.

١٠ - المقري، أبو العباس (الحفيد)، نفح الطيب، تحقيق إحسان عباس (بيروت: دار صادر، ١٩٦٨) ٥: ٢٥٢.
وانظر كتابنا : الإمام أبو عبدالله المقري التلمساني (تونس: الدار العربية للكتاب، ١٩٨٨).

١١ - ممن ترجم له :
الزركشي، في تاريخ الدولتين، ص٧٣ - ٧٤. وابن فرحون، في الديباج، ٢: ٣٢٨. وابن قنفذ في الوفيات: ٣٤٦، تحقيق عادل نويهض (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٣). وأحمد بابا، في نيل الابتهاج، تحقيق عبدالحميد الهرامة (طرابلس: منشورات كلية الدعوة الإسلامية) ص٣٩٢ رقم ٥٢٠. وابن القاضي، درة الحجال، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور (تونس: المكتبة العتيقة، القاهرة: دار التراث، ١٩٧١)، ٢: ١١٢. ومخلوف، شجرة النور، ص ٢٠٧. وعبدالوهاب، حسن حسني، كتاب العمر (تونس: بيت الحكمة، ١٩٩٠)، ١: ٢: ٧٣٨. والزركلي، الأعلام، ٧: ١١١ ط ٣. وكحالة، معجم المؤلفين، ١٠: ٢١٣. ومحفوظ، معجم المؤلفين التونسيين، ٢: ٣٢٩. والنيفر، ابن راشد القفصي، دراسات في اللغة والحضارة (تونس: وزارة الشؤون الثقافية، منشورات الحياة الثقافية، ١٩٧٥) ص٩١ - ١٢٠.

١٢ - قفصة : مدينة قديمة تقع وسط واحة نخيل في الجنوب الغربي من البلاد التونسية تبعد عن تونس العاصمة حوالي ٣٤٠ كلم، وهي اليوم عاصمة ولاية اشتهرت بالفلاحة وصنع نوع من الزرابي التقليدية.

١٣ - نيل الابتهاج، ص ٣٩٢.

١٤ - تراجم المؤلفين التونسيين : ٢: ٣٣١.

١٥ - الديباج : ٢: ٣٢٨ - ٣٢٩.

١٦ - تراجم المؤلفين : ٢: ٣٣٢.

١٧ - هي : الشهاب الثاقب في شرح ابن الحاجب، في ثمانية أسفار.
- والمذهب في ضبط مسائل المذهب، في ستة أسفار، قال عنه ابن مرزوق التلمساني: ليس للمالكية مثله.
- والفائق ، الذي نتحدث عنه في هذا المقال. وقد شرعت في تحقيق قسم العبادات من كتاب المذهب المذكور اعتماداً على نسخة فريدة نادرة.

١٨ - أولهما : لباب اللباب، وقد نشرته المكتبة العلمية بتونس سنة ١٣٤٦ هـ وثانيهما: النظم البديع في اخت التفريع، وهو مختصر لتفريع ابن الجلاب، وهذا من كتب ابن راشد المفقودة. أما أصله التفريع فقد نشرته دار

الغرب الإسلامي ببيروت في جزأين سنة ١٩٨٧ بتحقيق الدكتور حسين الدهماني.

١٩ ،٢٠ - من مقدمة الفائق، الجزء الأول رقمه ١٢٢٩١ بدار الكتب الوطنية بتونس، وكل ما استشهدت به في هذا الموضوع من كلام ابن راشد منقول من نسخة الجزء الأول المشار إليها.

٢١ - انظر عن التوثيق وبعض مؤلفاته: عبد العزيز بن عبدالله، معلمة الفقه المالكي (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٣ م) ص ٢١- ٢٤. وجمعة الزريقي، نظام الشهر العقاري في الشريعة الإسلامية (بيروت: منشورات دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٨) ص ١٥ - ٢٨.

٢٢ - اشتركت مع الأستاذ عبدالحفيظ منصور في تحقيق هذا الكتاب، ويتولى مجمع الفقه بجدة طبعه.

٢٣ - تقوم دار الغرب الإسلامي بطبع موسوعة «النوادر والزيادات».

٢٤ - نشرت أجزاء من نوازل ابن سهل بتحقيق الدكتور محمد عبدالوهاب خلاف، وكان قسم منها موضوع رسالة جامعية نال بها أنس العلاني دكتوراه الحلقة الثالثة من الكلية الزيتونية الشريعة وأصول الدين، بتونس.

٢٥ - نشرت هذا الكتاب أخيراً دار الغرب الإسلامي ببيروت بتحقيق العروسي المطوي، وانظر دراستها التي تناولت هذا الكتاب مخطوطاً بمجلة أبحاث الاقتصاد الإسلامي الصادرة عن المركز العالمي لأبحاث الاقتصاد الإسلامي بجامعة الملك عبدالعزيز بجدة ٢ (١) شتاء ١٤٠٤ هـ = ١٩٨٤ م، ص ٦٣ - ٨٢.

٢٦ - أصدرت دار الغرب الإسلامي ببيروت طبعة جديدة له سنة ١٩٨٨ بتحقيق الدكتور محمد حجي، في ثلاثة أجزاء.

٢٧ - نشرت دار الغرب الإسلامي ببيروت أخيراً هذا الكتاب لأول مرة بتحقيق الدكتور محمد عبدالله كريم في ثلاثة أجزاء.

٢٨ - المعروف من مذهب مالك في السماسرة عدم الضمان، لأن يد السمسار يد أمانة. انظر : كشف القناع عن تضمين الصناع لابن رحال، بتحقيقنا (تونس: بيت الحكمة، ١٩٨٦).

٢٩ - انظر عن النسخ التونسية للفائق، كتاب العمر، ١: ٢: ٧٤١ - ٧٤٢.

٣٠ - نظام الشهر العقاري (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٨) ص ٢٢.

مجاز القرآن لأبي عبيدة

عرض الدكتور محمد الجوي

كليــــة الآداب - القنيطرة بالمغـــــرب

دوافع تأليف الكتاب:

عندما ألف أبو عبيدة(١) كتابه "مجاز القرآن" كان يقصد تفسير ما في القرآن من معانٍ غامضة وأوجه متشابهة(٢)، إذ لم يخطر على باله أنه سيؤلف في علوم البلاغة أو في فن معين من فنونها وهو "المجاز" كما عرف عند البلاغيين المتأخرين(٣).

لقد شعر أبو عبيدة أن الناس محتاجون إلى مؤلفات تفسّر لهم معاني القرآن، إذ بعد العهد بعصر صدرالإسلام، والتابعين حين كان المسلمون لا يجدون عنتاً وصعوبة في فهم معاني الآيات: "فلم يحتج السلف ولا الذين أدركوا وحيه إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن يسألوا عن معانيه لأنهم كانوا عرب الألسن، فاستغنوا بعلمهم به عن المسألة عن معانيه، وعما فيه ممّا في كلام العرب مثله من الوجوه والتلخيص"(٤).

وأوضح أبو عبيدة أيضا المنهج الذي سيسلكه في تأليفه "مجاز القرآن"، وهو منهج قائم على شروح غريب اللغة والمعاني ووجوه الإعراب، وما يعتري الكلام من زيادة وحذف، معتمداً في ذلك على ما ورد في الشعر العربي القديم من هذه الأوجه، لأن ما "في القرآن مثل ما في الكلام العربي من وجوه الإعراب، ومن الغريب والمعاني"(٥).

مفهوم المجاز عند أبي عبيدة

ليس المجاز عند أبي عبيدة قسيم الحقيقة كما عرف عند البلاغيين المتأخرين، وإنما يعني بالمجاز الشروح اللغوية وبيان وجوه الإعراب، وما يطرأ على الكلام من ذكر وحذف، وتقديم وتأخير، وخطاب الجمع مخاطبة الواحد، والواحد مخاطبة الجمع، وبيان معاني الاستفهام؛ أي أن المجاز عنده هو مباحث في اللغة والنحو والبلاغة. وقد وضح ذلك في قوله:

"ففي القرآن ما في الكلام العربي من الغريب والمعاني ومن المحتمل من مجاز ما اختُصر، ومجاز ما حذف، ومجاز ما كفّ عن خبره، ومجاز ما جاء لفظه لفظ الواحد ووقع على الجميع، ومجاز ما جاء لفظه لفظ الجميع ووقع معناه على الاثنين، ومجاز ما جاء لفظه خبر الجميع على لفظ خبر الواحد، ومجاز ما جاء الجميع في موضع الواحد إذا أُشرك بينه وبين آخر مفرد"(٦).

ولكي تتضح صورة المجاز عنده نقف على نماذج من هذه الأضرب التي ذكرها:

أولاً الشروح اللغوية:

إن الشروح اللغوية هي الغالبة على الكتاب، لأن هدف المؤلف شرح الآيات القرآنية لتيسير فهمها على القارىء، ونأخذ نموذجاً من سورة البقرة:

"ألم سُكنت الألف واللام والميم، لأنه هجاء، ولايدخل في حروف الهجاء إعراب. قال أبو النجم العجلي:

أقبلت من عند زياد كالخَرِفْ(٧)
أجرّ رجليّ بخطٍّ مختلفْ
كانما تُكَتِّبان لام ألِفْ.

فسكّنه لأنه هجاء، ومعنى "ألم": افتتاح، مبتدأ كلام، شعار للسورة.

ذلك الكتاب، معناه: هذا القرآن؛ وقد تخاطب العرب الشاهد فتُظهر له مخاطبة الغائب.

قال خفاف بن ندبة السلميّ، وهي أمه، كانت سوداء حبشية، وكان من غربان العرب في الجاهلية:

فإنْ تك خيلي قد أصيب صميمُها
فعمداً على عينٍ تيمَّمْت مالكا
أقولُ له والرُمــــحُ يأطِرُ متنَهُ
تأمّلْ خُفافاً إنني أنا ذلكا(٨)

يعني مالك بن حماد الشَمْخي. وصميم خيله: معاوية أخو الخنساء، قتله دريد وهاشم ابنا حرملة المرّيّان. لا ريب فيه: لا شك فيه، وأنشدني أبو عمرو الهذلي لساعدة بن جؤية الهذلي:

فقالوا: تركنا الحيَ قدحَصَروا به
فلا ريب أن قد كان ثمَّ لَحِيمُ

أي قتيل، يقال: فلان قد لُحِم أي قتل. وحصروا به: أي أطافوا به. لا ريب: لا شك. هدى للمتقين: أي بياناً للمتقين"(٩).

هذا هو منهج أبي عبيدة في التفسير، يعتمد على فقهه بالعربية وأساليبها، وخصائص التعبير فيها، ثم يورد أشعاراً جاهلية أو إسلامية لبيان مدلول اللفظة. وهذا الاتجاه في التفسير جعل أبا عبيدة يفسر القرآن بالرأي، فتعرض لنقد شديد من طرف العلماء(١٠). وبالرغم من هذا النقد فإن الكتاب يفيد الباحثين في الجوانب اللغوية

والنحوية والشعرية والبلاغية، فهو زاخر بهذه القضايا.

ثانياً، القضايا النحوية:

عالج أبو عبيدة – تحت اسم المجاز – عدداً من الظواهر النحوية وردت في الآيات الكريمة، واستشهد على صحتها بأبيات من الشعر القديم على عادته؛ وهذه القضايا النحوية التي ذكرها لا علاقة لها بعلوم البلاغة عامة أو بالمجاز خاصة، وقد تداولها النحاة في مصنفاتهم بحثاً ودراسة.

ومما ذكره قوله تعالى: "بل ملَّةَ إبراهيم"(١١). قال: "انتصب لأن فيه ضمير فعل، كأن مجازه: بل اتبعوا ملة إبراهيم. أو: عليكم ملة إبراهيم"(١٢).

ومما أشار إليه في اللغة الضعيفة قوله تعالى: "ليسوا سواءً من أهل الكتاب أمة قائمة".(١٣) قال: "العرب تجوّز في كلامهم مثل هذا، أن يقولوا: أكلوني البراغيث. قال أبو عبيدة: سمعتها من أبي عمرو الهذلي في منطقه، وكان وجه الكلام أن يقول: أكلني البراغيث. وفي القرآن: "عموا وصمّوا كثير منهم"(١٤). وقد يجوز أن يجعله كلامين، فكأنك قلت: "ليسوا سواءً من أهل الكتاب". ثم قلت: "أمة قائمة". ومعنى قائمة: مستقيمة"(١٥).

ثالثاً، الأضرب البلاغية:

ونجد في كتاب "مجاز القرآن" ضروبا بلاغية كثيرة اهتدى إليها أبو عبيدة، تندرج ضمن علوم البلاغة الثلاثة: البيان والمعاني والبديع، أشار إليها تحت اسم "المجاز". وقد ظلت هذه الأضرب البلاغية متداولة عند النقاد والبلاغيين المتأخرين، وهي:

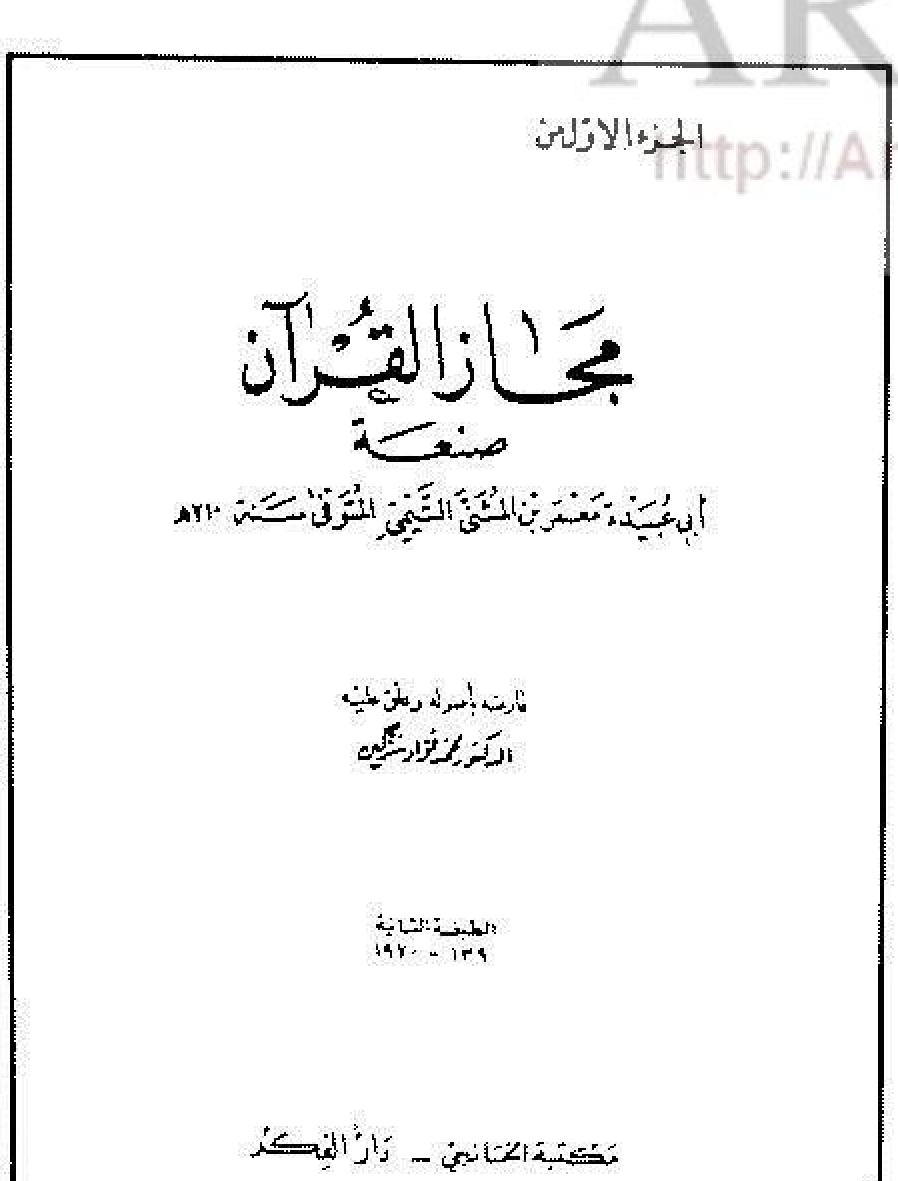
١ – مجاز ما اختصر وفيه مضمر، في قوله تعالى:"وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا"(١٦). قال: فهذا مختصر فيه ضمير مجازه: "وانطلق الملأ منهم". ثم اختصر إلى فعلهم وأضمر فيه: وتواصوا أن امشوا أو تنادوا أن امشوا أو نحو ذلك(١٧).

وقوله تعالى: "واسئل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها"(١٨). مجازه: واسأل أهل القرية ومن في العير.

ومن الاختصار قوله تعالى: "فأما الذين اسودّت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم"(١٩). قال: "العرب تختصر لعلم المخاطب بما أريد به، فكأنه خرج مخرج قولك: فأما الذين كفروا فيقول لهم: أكفرتم، فحذف هذا واختُصر الكلام"(٢٠).

وقوله تعالى: "وإلى مدين أخاهم"(٢١) مجازه مجاز المختصر الذي فيه ضمير: وإلى أهل مدين(٢٢).

وهذه الأضرب من المجاز يدخلها البلاغيون في إيجاز الحذف، وهي من المجاز، يحذف بعض الكلام لدلالة الباقي على


الجزء الأول
مجاز القرآن
صنعة
أبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي المتوفى سنة ٢١٠ هـ
عارضه بأصوله وعلق عليه
الدكتور محمد فؤاد سزگين
الطبعة الثانية
١٣٩٠ - ١٩٧٠
مكتبة الخانجي – دار الفكر

صورة كتاب مجاز القرآن

الذاهب(٢٣)

٢ - مجاز ما جاء لفظه لفظ الواحد. قال تعالى: "بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن"(٢٤). ذهب إلى لفظ الواحد، والمعنى يقع على الجميع(٢٥). وقوله تعالى: "وحسن أولئك رفيقاً"(٢٦)، أي رفقاء.

والعرب تلفظ بلفظ الواحد والمعنى يقع على الجميع؛ وهذا النوع سمي عند البلاغيين بالمجاز المرسل، علاقته الجزئية، وهو أن يطلق الجزء ويراد الكل(٢٧).

٣ - مجاز ما جاء من لفظ خبر الجميع على لفظ الواحد، مثل قوله تعالى: "والملائكة بعد ذلك ظهير"(٢٨)، في موضع: ظهراء(٢٩). وهذا مجاز مرسل علاقته الكلية(٣٠).

٤ - مجاز ما جاء لفظه لفظ الجميع الذي له واحد منه، ووقع معنى هذا الجميع على الواحد.

قال تعالى: "الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم"(٣١). والناس جميع، وكان الذي قال رجلاً واحداً(٣٢).

وقال في موضع آخر: "وقع المعنى على رجل واحد، والعرب تفعل ذلك، فيقول الرجل: فعلنا وفعلنا، وإنما يعني نفسه"(٣٣). وقال تعالى: "إنا كل شيء خلقناه بقدر"(٣٤) والخالق الله وحده لا شريك له(٣٥). وهذا مجاز لغوي مرسل علاقته العموم، وهو كون الشيء شاملاً لكثيرين(٣٦).

٥ - مجاز ما جاء من لفظ خبر الحيوان والموات على خبر الناس. قال تعالى: "قالتا أتينا طائعين"(٣٧). وقال: "يريد أن ينقض"(٣٨). قال أبو عبيدة: "وليس للحائط إرادة ولا للموات، ولكنه إذا كان في هذه الحال من ربه فهو إرادته"(٣٩). وقوله تعالى: "رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين"(٤٠).

وهذا اللون من المجاز هو ما عرف بالاستعارة المكنية، حيث خلعت صفات الحياة على الأموات والجماد، وهي استعارة حسية تشخيصية، تفاعلت فيها الدلالات بين ما هو حسي وغير حسي(٤١).

٦ - مجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الشاهد، ثم تركت وحوّلت مخاطبته هذه إلى مخاطبة الغائب.

قال تعالى: "حتى إذا كنتم في الفلك وجرَيْنَ بهم"(٤٢). أي بكم(٤٣). وهذا اللون من المجاز أطلق عليه الأصمعي اسم "الالتفات"، وهو من علم البديع(٤٤). وجعله ابن المعتز من "محاسن الكلام" واستشهد بالآية التي ذكرها أبو عبيدة(٤٥).

٧ - مجاز ما يزاد في الكلام من حروف الزوائد. قال تعالى: "إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة"(٤٦) معناها: أن يضرب مثلا بعوضة، "ما" توكيد للكلام من حروف الزوائد(٤٧). وقال تعالى: "فما منكم من أحد عنه حاجزين"(٤٨)، وقوله: "وهزّي إليك بجذع النخلة"(٤٩) مجازه: هزّي إليك جذع النخلة، الباء من حروف الزوائد(٥٠).

وهذا اللون من المجاز عرف عند البلاغيين بالمجاز بالزيادة، لأن حروف الزوائد لا تؤثر في الكلام إذا سقطت(٥١).

٨ - مجاز المقدم والمؤخر.
قال تعالى: "فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت وَرَبَتْ"(٥٢). أراد: ربت واهتزت(٥٣). وقوله تعالى: "فريقاً كذبوا"(٥٤). مقدم ومؤخر، مجازه: كذبوا فريقا(٥٥). وقوله تعالى: "وأجلٌ مُسمّىً عنده"(٥٦). مقدم ومؤخر، مجازه: وعنده أجل مسمى، أي وقت مؤقت(٥٧). وقوله تعالى: "لنريك من أياتنا الكبرى"(٥٨)، مجازه: مقدم ومؤخر، أي لنريك الكبرى من أياتنا، أي من عجائبنا(٥٩).

والتقديم والتأخير يدخل في مباحث علم المعاني(٦٠). وقد عني به البلاغيون واستخرجوا منه ضروباً من المحاسن في تراكيب اللغة العربية، أشار عبد القاهر إلى مزايا هذا الباب فقال: "هو باب كثير الفوائد، جمّ المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة"(٦١).

٩ - مجاز ما وقع المعنى على المفعول وحُوّل إلى الفاعل. قال تعالى: "ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع"(٦٢). قال أبو عبيدة: "وإنما الذي ينعق الراعي، ووقع المعنى على المنعوق به وهي الغنم، تقول: كالغنم التي لا تسمع التي ينعق بها راعيا؛ والعرب تريد الشيء فتحوله إلى شيء من سببه، يقولون: أعرض الحوض على الناقة، وإنما تعرض الناقة على الحوض"(٦٣).
وهذا المجاز سمي مجازاً مرسلاً وعلاقته المفعولية.

١٠ - مجاز المصدر الذي في موضع الاسم أو الصفة. قال تعالى: "ولكن البرُّ من آمن بالله"(٦٤). أي البار(٦٥). وهذا مجاز مرسل علاقته المصدرية.

وأشار أبو عبيدة أيضا إلى معاني حروف الاستفهام، وهي من مباحث الإنشاء في علم المعاني. قال تعالى: "أتجعل فيها من يفسد فيها"(٦٦). قال: "جاءت على لفظ الاستفهام، والملائكة لم تستفهم ربها، وقد قال تبارك وتعالى (إني جاعل في الأرض خليفة)(٦٦)، ولكن معناها معنى الإيجاب، أي أنك ستفعل. وقال جرير، فأوجب ولم يستفهم. لعبد الملك بن مروان:

ألستم خير من ركب المطايا
وأندى العالمين بطون راح(٦٧).

وتقول وأنت تضرب الغلام على الذنب: ألست الفاعل كذا! ليس باستفهام ولكن تقرير"(٦٨). وقوله تعالى: "ءَأنت قلت للناس اتخذوني وأمي"(٦٩). قال: "هذا باب تفهيم وليس باستفهام عن جهل ليعلمه، وهو يخرج مخرج الاستفهام، وإنما يراد به النهي عن ذلك ويتهدد به، وقد علم قائله أكان ذلك أم لم يكن"(٧٠). وقال تعالى: "ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون"(٧١). قال: "مجاز الألف هاهنا مجاز الإيجاب والإخبار والتقرير، وليست بألف الاستفهام بل هي تقرير للذين عبدوا الملائكة"(٧٢).
هذه هي المجازات التي ذكرها أبو عبيدة، وبالرغم من أنه لم يعط لهذه الضروب البلاغية أسماء ومصطلحات مثل ما فعل البلاغيون المتأخرون فإنه اهتدى إلى صورتها البلاغية وطريقة التعبير بها؛ وهذه مزية ينفرد بها هذا العالم في البلاغة، ويعد بحق من رواد الباحثين في البلاغة العربية.

لقد رسم كتاب "مجاز القرآن" للبلاغين مجالات العمل في هذا الحقل من المعرفة دون أن يعنى صاحبه بتعداد المصطلحات، وهو بذلك يعطينا صورة نشأة البلاغة والمنابع التي كانت تستقي منها مادتها وهي القرآن بالدرجة الأولى ثم الشعر القديم.

ونصل من هذه الفكرة إلى حقيقة وهي أن البلاغة العربية في نشأتها الأولى لم تتأثر بالتيارات الأجنبية ولا سيما الفكر الفلسفي اليوناني.

وشيء ثان يعد من محاسن هذا الكتاب وهو أن أبا عبيدة درس علوم البلاغة بطريقة شمولية، إذ عني بتحليل أساليب الصورة البلاغية ونوعية التعبير فيها، وهي الطريقة المثلى في المباحث البلاغية، لأن المقصود منها بيان ما تحتوي عليه الأساليب من طرافة في التعبير لتسهل محاكاتها عند المعلمين دون إرهاقهم بالمصطلحات والأسماء والتعريفات.

وفضيلة ثالثة لهذا الكتاب بالإضافة إلى ريادته في علم البلاغة، أنه احتوى على ذخيرة ثمينة من الشعر الجاهلي والمخضرم والإسلامي، تدل على غزارة محفوظ أبي عبيدة من هذا التراث الذي كان في هذه الفترة ملجأ اللغويين والنحويين للبحث عن أصول الألفاظ ومعانيها واستنباط القواعد النحوية، كما أصبح فيما بعد ملجأ البلاغيين لاستقراء ضروب من فنون البلاغة.

ومن هنا عدّ الكتاب عند الباحثين المعاصرين "بداية نمو البلاغة العربية، وتطورها نحو التقعيد"(٧٣).

وهذا التطور يشاهد في جوانب متعددة من الكتاب، منها أن محاولة أبي عبيدة، وإن لم يقصد منها التأليف في البلاغة وتأسيس قواعد هذا العلم، فإنما وضعت تصوراً عاماً لعلوم البلاغة الثلاثة: البيان والمعاني والبديع، إذ أشار إلى أنواع المجاز والاستعارة والكناية والإيجاز والتقديم والتأخير والالتفات، بالإضافة إلى توسعه في بيان الخصائص التعبيرية، ولاسيما عند إشارته إلى الدلالة بلفظ الخصوص على معنى العموم، وبلفظ العموم على معنى الخصوص، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع، ومخاطبة الجميع مخاطبة الواحد. هذا بالإضافة إلى أن سبب التأليف مرتبط بالبحث البلاغي من حيث كيفية التوصل إلى فهم معاني القرآن باحتذاء أساليب العرب في التشبيه خاصة، فقد سئل أبو عبيدة في مجلس الفضل بن الربيع عن معنى الآية الكريمة "طلعها كأنه رؤوس الشياطين"(٧٤)، وقال له السائل: "إنما يقع الوعد والإيعاد بما قد عرف مثله، وهذا لم يعرف"، (٧٥) فأجابه أبو عبيدة: إنما كلم الله العرب على قدر كلامهم، أما سمعت قول امرئ القيس:

أيقتلني والمشرفيّ مضاجعي
ومسنونة زرق كأنياب أغوال(٧٦)

بعد ذلك عزم أبو عبيدة على تأليف كتاب يبيّن معاني مجازات القرآن.

وعندما ننظر في الآية التي طلب من أبي عبيدة بيان معناها، وفي البيت الذي استشهد به فإننا نجد فيهما فناً بلاغياً هو ما عرف عند البلاغيين ب"التشبيه الوهمي" الذي لا يدرك بإحدى الحواس(٧٧): فالشاهد البلاغي حاضر حتى في سبب التأليف.

ويظل كتاب "مجاز القرآن" بما تناول من قضايا البلاغة والأسلوب في القرآن والتراث الشعري إنجازاً عظيماً يظهر مدى تفاعل علمائنا القدامى مع الصورة البلاغية.

□ □ □

الحواشي

١ - أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي، كان عالما بالشعر والغريب والنحو والأخبار والأيام، توفي سنة ٢١٠هـ. وفيات الأعيان ٥: ٢٣٥
٢ - انظر سبب تأليف كتابه في وفيات الأعيان ٥: ٢٣٦.
٣ - المجاز هو الكلمة المستعملة في غير ما هي موضوعة له بالتحقيق مع قرينة مانعة عن إرادة معناها في ذلك النوع. والمجاز عند البلاغيين أبلغ من الحقيقة وأحسن موقعاً في القلوب والأسماع. مفتاح العلوم: ٣٥٩، والعمدة ١: ٤٥٦
٤ - مجار القرآن ١: ٨.
٥ - المرجع السابق، الصفحة ذاتها.
٦ - المرجع السابق ١: ١٨ - ١٩.
٧ - الخرف: الذي فسد عقله من الكبر. اللسان: خرف
٨ - يأطر الرمح: يثنى.
٩ - مجاز القرآن: ١: ٢٨ - ٢٩،
١٠ - من هؤلاء العلماء الفرّاء (-٢١١هـ)، وقد تمنى أن يضرب أبو عبيدة لمسلكه في التفسير. راجع: تاريخ بغداد ١٣: ٢٥٥
١١ - البقرة ٢: ١٣٥.
١٢ - مجاز القرآن ١: ٥٧.
١٣ - آل عمران ٣: ١١٣.
١٤ - المائدة ٥: ٧١.
١٥ - مجاز القرآن ١: ١٠١-١٠٢.
١٦ - سورة ص ٣٨: ٦.
١٧ - مجاز القرآن ١: ٤٧.
١٨ - يوسف ١٢: ٨٢.
١٩ - آل عمران ٣: ١٠٦.
٢٠ - مجاز القرآن ١: ١٠٠.
٢١ - هود ١١: ٨٤.
٢٢ - مجاز القرآن ١: ٢٩٧.
٢٣ - العمدة ١: ٤٣٣.
٢٤ - البقرة ٢: ١١٢.
٢٥ - مجاز القرآن ١: ٥١.
٢٦ - النساء ٤: ٦٩.
٢٧ - الإشارة والتنبيهات، ص ٢٣١.
٢٨ - التحريم ٦٦: ٤.
٢٩ - مجاز القرآن ١: ٩.
٣٠ - انظر كتاب التبيان ٢٢٥.
٣١ - آل عمران ٣: ١٧٣.
٣٢ - مجاز القرآن ١: ٩.
٣٣ - المرجع السابق ١: ١٠٨. والناس الأولى: رجل واحد، وهو نعيم بن مسعود الأشجعي، والقرينة على ذلك أن الحسد ما كان إلا له، وأن القائل ما كان إلا نعيماً. علوم البلاغة للمراغي: ٣٠١
٣٤ - القمر ٥٤: ٤٩.
٣٥ - مجاز القرآن ١: ٩، ١٠٨.
٣٦ - راجع علوم البلاغة للمراغي، ص٣٠١.
٣٧ - فصلت ٤١: ١١.
٣٨ - الكهف ١٨: ٧٧.
٣٩ - مجاز القرآن ١: ١٤٠. قال ابن قتيبة في مجاز آية فصلت: "لم يقل الله، ولم يقولا، وكيف يخاطب معدوماً؟ وإنما هذا عبارة: لكونا هما فكانتا". تأويل مشكل القرآن: ٧٠
٤٠ - يوسف ١٢: ٤.
٤١ - كتاب التبيان ٢٤٧.
٤٢ - يونس ١٠: ٢٢.
٤٣ - مجاز القرآن ١: ١١.
٤٤ - مفتاح العلوم، ص ٤٢٩.
٤٥ - كتاب البديع، ص ٥٨ - ٥٩.
٤٦ - البقرة ٢: ٢٦.
٤٧ - مجاز القرآن، ١: ٣٥.
٤٨ - الحاقة ٦٩: ٤٧.
٤٩ - مريم ١٩: ٢٥.
٥٠ - مجاز القرآن: ٢: ٥.
٥١ - الطراز ١: ٦٩.
٥٢ - الحج ٢٢: ٥.
٥٣ - مجاز القرآن ١: ١٢.
٥٤ - المائدة ٥: ٧٠.
٥٥ - مجاز القرآن ١: ١٧٣.
٥٦ - الأنعام ٦: ٢.
٥٧ - مجاز القرآن ١: ١٨٥.
٥٨ - طه ٢٠: ٢٣.
٥٩ - مجاز القرآن ١: ١٨.
٦٠ - مفتاح العلوم، ص ٢١٩.
٦١ - دلائل الاعجاز، ص ٨٣.
٦٢ - البقرة ٢: ١٧١.

٦٣ – مجاز القرآن ١. ٦٣.
٦٤ – البقرة ٢: ١١٧.
٦٥ – مجاز القرآن: ١: ١٣.
٦٦ – البقرة ٢: ٣٠.
٦٧ – ديوانه، ص ٩٨.
٦٨ – مجاز القرآن ١: ٣٥-٣٦.
٦٩ – المائدة ٥: ١١٦.
٧٠ – مجاز القرآن ١: ١٨٤.
٧١ – سبأ ٣٤: ٤٠.
٧٢ – مجاز القرآن ١: ١٥٠.
٧٣ – مجاز القرآن: ولادة علوم البلاغة: ١٣٩. حسن عباس نصرالله ، بحث نشر بمجلة الفكر العربي سنة ٨٧، العدد ٤٦.
٧٤ – الصافات: ٧: ٦٥.
٧٥ – وفيات الأعيان: ٥: ٢٣٦.
٧٦ – المرجع السابق، وديوانه: ٣٣.
٧٧ – الإيضاح: ٣٣٦، وكتاب التبيان: ١٨٤.

المصادر والمراجع:

– الجرجاني، محمد بن علي. الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة. تحقيق عبد القادر حسين. القاهرة: دار نهضة مصر، ١٩٨١.
– الخطيب القزويني. الايضاح في علوم البلاغة. شرح وتعليق عبدالمنعم خفاجي. ـ ط ٥. بيروت: منشورات دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٠.
– الجرجاني، عبدالقاهر. دلائل الإعجاز. تصحيح محمد رشيد رضا. بيروت: دار المعرفة، ١٩٧٨.
– ديوان جرير. نشر إسماعيل عبد الله العاوي. دار الأندلس.
– العلوي، يحيى بن حمزة. الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز. القاهرة: مطبعة المقتطف، ١٩١١.
– المراغي، أحمد مصطفى. علوم البلاغة: البيان والمعاني والبديع . ـ بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٢.
– الطيبي، شرف الدين حسين بن محمد. كتاب التبيان في علم المعاني والبديع والبيان. تحقيق وتقديم د. هادي عطية مطر الهلالي، ط١. ١٩٨٧.
– ابن المثنى، أبو عبيدة معمر. مجاز القرآن. تحقيق محمد فؤاد سزكين. القاهرة: مكتبة الخانجي.
– ابن خلكان. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تحقيق إحسان عباس. بيروت: دار صادر، ١٩٦٨.

المجلات الدوريات:

– مجلة الفكر العربي عدد ٦: ١، ١٩٨٧.

مالا يسع الطبيب جهله
لابن الكتبي
نسخة مخطوطة نفيسة

عرض الدكتور مسلم الزيبق

رئيس قسم التراث العلمي بالمركز

يحتفظ مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بنسخة قيمة من مخطوط: (مالا يسع الطبيب جهله)، لمؤلفه يوسف بن إسماعيل بن الياس، الشهير بابن الكتبي (رقمه ٤٤٠١).

المؤلف

اتفقت المصادر على ذكر اسمه (يوسف بن إسماعيل بن الياس)، إلا أنها اختلفت في نسبته وشهرته. ففي حين يعتقد حاجي خليفة(١) والزركلي(٢) وكحالة(٣) أن نسبته (الخوي البغدادي)، يرى بروكلمان(٤) أنه (الجويني). فيما يضيف مدين بن عبدالرحمن القوصوني إلى اسمه لقباً آخر هو (كمال الدين) وذلك في كتابه (قاموس الأطبا وناموس الألبا)(٥).

أما شهرته، فقد وردت في كشف الظنون وهدية العارفين على أنها (ابن الكبير)، بينما هي عند بروكلمان (ابن الكتبي) استناداً إلى مخطوط أحمد الثالث الأقرب إلى عصره(٦).

ولا نكاد نعرف الكثير عن حياته، سوى أنه نشأ وعاش في بغداد (كما ذكر الزركلي). فيما يشير معجم الأطباء - نقلاً عن مخطوط أحمد الثالث - إلى أنه عالم فقيه، فرضي، طبيب. وأنه مدني المولد والنشأة، أعاد في المستنصرية، فبرع في مهنته، وذاع صيته(٧).

كذلك ، لم تحدد المصادر التاريخية تاريخ وفاته. فلم يشر إلى ذلك حاجي خليفة أو بروكلمان، فيما تبنى أحمد عيسى بك في (معجم الأطباء)، وكذا الزركلي في (الأعلام) ماورد في مخطوط أحمد الثالث بأن تاريخ

وفاته كان في عام ٧٥٥ هـ(٨).

ويبدو أنه على الرغم من اضطراب حياة المؤلف، وغموض تفاصيلها، فإن هذا لم يمنع من ذيوع شهرته وبلوغ أوجها في منتصف القرن الثامن الهجري، حيث أصبح ابن الكتبي طبيباً بارعاً، وواحداً من أعلام الطب في عصره، فتناقلت المدارس آنذاك كتابيه الوحيدين (مالا يسمع الطبيب جهله ومجمع المنافع البدنية) بكثير من الاهتمام والتقدير، وغدت هذه المؤلفات مرجعاً هاماً لمعظم التآليف التي جاءت بعدها.

وصف المخطوط

يتألف المخطوط من ٢٨٦ ورقة (٢٧ × ١٦ سم - ٣١ س). كتب بخط نسخي سنة ٩٧٣ هـ، أصابته الرطوبة في أطرافه، ورممت بعض ورقاته ترميماً قديماً.

ويقع المتن ضمن إطار مذهب، كتبت أسماء الفصول والأدوية المفردة فيه بلون أحمر، كما كتبت البسملة في الورقة الأولى منه بأسلوب التفريغ داخل مساحة مذهبة متداخلة بزخرفة نباتية ملونة بالأزرق والأحمر، فيما احتوت هوامشه على بعض التصحيحات بخط خيرالله محمد بن عثمان.

بداية المخطوط: «الحمد لله الذي لا تكتنه بمعرفة حقيقته العلوم والأفهام... لما كان الإنسان بل الحيوان جملة من المركبات العنصرية... وكنت وقفت على كثير من الكتب المصنفة في هذا الفن مختصرها ومطولها فلم أجد أجمع من كتاب ابن البيطار... فاستخرت الله تعالى ونقيت عنه قشرته... وسميته بما لا يسع الطبيب جهله...».

ونهايته: «... ينمة: اسم بالمغرب لنبتة ورقها يشبه ورق الهندبا زغبة إلا أنه أصغر وكأنه الخندريلي وهي مجربة في إلصاق الجراحات طرية ويابسة ذراً».

محتوى المخطوط

يتضمن المخطوط مقدمة وجزئين يتعلقان بالأدوية المفردة والمركبة:

- المقدمة

يستهل المؤلف كتابه بعرض موجز لمفهوم النظرية الطبية السائدة آنذاك، حيث يستعرض الكليات والأركان والأمزجة والعناصر والغرائز، ويشير إلى علاقتها بالممارسة الطبية وتطبيقاتها في المعالجة والمداواة.

ثم يتناول كتاب ابن البيطار (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية)، فينتقده موضحاً الأسباب التي دعته إلى ذلك وهي الإطالة وعدم



صفحة من المخطوط

الاهتمام بالخواص الأقراباذينية للمادة الدوائية أو آثارها الجانبية.
ويتطرق المؤلف بعد ذلك للخصائص الدوائية، فيعرض للأدوية المفردة - الواردة في كتاب ابن البيطار - من حيث مرتبة الدواء ومنفعته ومقداره وأشكاله الصيدلانية وأبداله، كما يشير إلى بعض الأدوية التي أغفلها ابن البيطار، أو التي اعتبرها تندرج في الأشكال الصيدلانية لمادة دوائية أخرى.

- الجزء الأول

يتناول هذا الجزء موضوع الأدوية المفردة مرتبة في فصول عدة:

- فصل في تقسيم الوارد إلى البدن، بسيطاً أو مركباً، وأنواعها: حيث يشير إلى أن البسيط هو مالم ينقسم إلى أجزاء مختلفة، لا في الصورة ولا في القوة، أما المركب فهو ما يتألف من البسيط بمختلف أشكاله النباتية أو الحيوانية أو المعدنية.
- **فصل في تدرج المراتب الدوائية**: حيث تصنف الأدوية وفق قواها، ومدى تأثيرها، إضافة إلى استطباباتها وآثارها الجانبية.
- **فصل في معرفة مزاج الدواء**: وهو بحث في تأثيرات الدواء المفرد وتصنيف هذه التأثيرات بطرق قياسية. ويشير هنا إلى أن: «مواد القياس أشياء أحدها فعل الدواء وهو حقيقة التجربة. وله شروط الأول أن يمتحن في بدن الإنسان. وبالنسبة إليه لأنه أعدل الحيوان مزاجاً وأقربها إلى الوسط».
- **فصل في تقسيم الأمزجة والقوى إلى مراتب**: ويبين فيه أن القوة هي السبب الموجب للفعل. أي أنها صورة المزاج وكيفيته الحاصلة للمتزج عند وجوده وتركيبه وما يلزم عنه وما يلزم لازمه.
- **فصل في تقسيم منافع الأدوية إلى نافع وضار.**
- **فصل في أن الأدوية يعرض لها أحوال من خارج تعينها على كمال فعلها أو تضعفها أو تعدلها.**
- **فصل في الكيفيات تقال على الأدوية والأغذية بمعنيين**: بالقوة وبالفعل.
- **فصل في الشروط المناسبة لاستخلاص الأدوية من مصادرها وحفظها.**

الجزء الثاني

يعرض فيه المؤلف الأدوية المفردة مرتبة حسب الترتيب الهجائي، حيث يبدأ بـ (آلسن) وينتهي بـ (ينمة). وهو يتناول الدواء المفرد من حيث وصفه ومصدره وتصنيفه وقوته وفعله وتأثيراته الجانبية وأشكاله الصيدلانية.

أهمية الكتاب

يعد هذا الكتاب واحداً من أهم المؤلفات الطبية التي ظهرت في القرن الثامن الهجري. وتكمن هذه الأهمية في استيعابه لمجمل مؤلفات علم الأدوية التي سبقته، والتي تناولها برؤية نقدية ساعدت إلى حد كبير في تعديل الكثير من الآراء السائدة آنذاك حول مسائل تتعلق بتحضير الدواء وحفظه والعوامل المؤثرة فيه، إضافة إلى تطوير مفهوم المعالجة التجريبية وتبدلات الأشكال الصيدلانية واستطباباتها.
كذلك ، فقد انتقد بعض مواد كتاب ابن البيطار (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية)، وحاول تعديلها وعرضها من وجهة نظر طبية تتعامل مع الدواء المفرد من زاوية خصائصه الصيدلانية، وليس من جهة مواصفاته النباتية.
ومن أهم المؤلفات التي نقلت منه هي(٩):

- (قاموس الأطبا وناموس الألبا) لمدين بن عبدالرحمن القوصوني.
- (تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب) لداود بن عمر الأنطاكي.

إضافة إلى ذلك فقد ترجمه إلى التركية حسن عبدالرحمن، كاتب ديوان السلطان مراد خان الثالث(١٠).

نسخ المخطوط

من أهم النسخ الموجودة في مكتبات العالم:

- أحمد الثالث/ إستانبول (رقم ٢٠٥٤ - ف ١١٥٢): تاريخ النسخ ٨٩٥ هـ.
- المكتبة المارونية/ حلب (رقم ٥٦٢): ٩١٩ هـ.
- الظاهرية (رقم ٩٠٨٦): ٩٤٦ هـ.
- المكتبة الأحمدية/ حلب (رقم ١٢٦٢): ١٠١٣ هـ.
- الظاهرية (رقم ٣١٦٧): ١٠٨١ هـ.
- الظاهرية (رقم ٩٩٥١): ٧٥٦ هـ.
- المكتبة الغربية/ الجامع الكبير بصنعاء: ١٠٩٢ هـ.
- دار الكتب المصرية (رقم ١٠٨ طب/ ٤٣٨): ٩٧٨ هـ.
- المتحف العراقي (رقم ٢٣٤٦٧): ٩٧٠ هـ.
- مكتبة الأوقاف/ بغداد (رقم ٥٦٣).
- المتحف البريطاني (٥٦١٨).
- نور عثمانية/ إستانبول (رقم ٣٥٨٦).

□ □ □

الحواشي

١ - كشف الظنون ١٥٧٥.
٢ - الأعلام ٨ : ٢١٧.
٣ - معجم المؤلفين ١٣: ٢٧٤.
٤ - بروكلمان G. A. L. O ٢: ٢١٨.
٥ - انظر مقالة درية الخطيب وأحمد مضر الصقال في أبحاث المؤتمر السنوي السابع لتاريخ العلوم عند العرب حلب : معهد التراث العلمي ، ١٩٨٣.
٦ - المرجع السابق، ص ١٢١.
٧ - معجم الأطباء - أحمد عيسى بك ٥٢٤.
٨ - أبحاث المؤتمر السنوي السابع، ص١٢٤.
٩ - المرجع السابق، ص ١٣١.
١٠ - كشف الظنون، ص ١٥٧٥.

من أعلام الغرب الإسلامي:

ابراهيم ابن قرقول

الأستاذ عبد القادر زمامة

كليـــــــة الآداب - فـــــــاس

أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف ابن قُرْقُول الوهراني الحَمـزِي المعـروف عند المؤرخين والباحـثين في كتب الطبقات والتراث بابن قرقول الحَمْزِي من الشخصيات العلمية المرموقة التي شـرّق ذكرها وغـرّب وأعجم وأعرب.

أصل أسرته من بُلَيْدَة «حَمْزَة» التي كانت معروفة بين ثغر «بجاية» و«قلعة بني حمَّاد» من البلاد الجزائرية. ويُزاد في نسبته عند بعض المؤلفين: «الوهراني» نسبـة إلى ثغر وهران الشهـيـر. كمـا يزاد عند بعضـهـم: «القـائدي». لأن أحد أجداده كان يعرف بالقائد.

ولد أبو إسحاق بمدينة (المرية) الأندلسية سنة ٥٠٥ هـ = ١١١١ م على عـهـد دولة المرابطين. وبهذه المدينة نشأ وتعلّم وسمع من شيوخ المعرفة في عصره. وفي مقدمتهم الشيخ أبو القاسم بن وَرْد. وكان العصر عصر رواية وسماع وحفظ وإسناد ورحلة في طلب العلم. فأخذ من ذلك حظاً وافراً داخل الأقطار الأندلسية المتعددة وخارجها في بلاد المغرب العربي المزدهرة إذْ ذاك.

ويذكـر المؤرخ ابن الأبار (- ٦٥٨ هـ = ١٢٦٠ م) في ترجمة ابن قرقول من كتابه: «تكملة الصلّة» قائمة بأسماء شيوخ سمع منهم وآخرين أجازوه على المعهود في ذلك العصر. ومن أشهرهم:

١ - أبو عبدالله محمد بن علي المازريّ الفقيه المحدّث الشهير شارح صحيح مسلم المتوفى سنة ٥٣٦ هـ = ١١٤١ م أجاز ابن قرقول كتابة من «المهدية».

٢ - أبو العباس أحمد بن محمد الصنهاجي المعروف بابن العَريف الفقيه الصوُّفي مؤلف كتاب «محاسن المجالس» دفين مراكش ٥٣٦

هـ = ١١٧١ م سمع منه ابن قرقول...

٣ - أبو محمد عبدالله الرُشَاطِي المحدّث النسّابة مؤلف كتاب «اقتباس الأنوار والتماس الأزهار في أنساب الصحابة ورُواة الآثار» المتوفى شهيداً بالمرية ٥٤٢ هـ = ١١٤٧ م سمع منه ابن قرقول.

٤ - أبو بكر محمد بن عبدالله ابن العربي المعافري القاضي الفقيه المحدّث الرحّالة المؤلف دفين فاس ٥٤٣ هـ = ١١٤٨ م سمع منه ابن قرقول وأخذ عنه وذكره من جملة شيوخه.

٥ - أبو الفضل عياض بن موسى السبتي الفقيه المحدث القاضي الأديب المؤرخ دفين مراكش ٥٤٤ هـ = ١١٤٩ م. كتب لابن قرقول.. وكان هذا يروي عنه ويذكره في شيوخه.

٦ - أبو القاسم السُهَيْلي اللّغوي المؤرخ النحوي دفين مراكش ٥٨١ هـ = ١١٨٥ م روى عنه ابن قرقول واستفاد منه كثيراً... وكانت بينهما مودّة.

ويظهر حسب الاستقراء والتتبّع أن ابن قرقول جاب أرجاء البلاد الأندلسية شرقاً وغرباً وعرف الكثير من علمائها وأدبائها وشعرائها. ومن ضمنهم شاعر ذلك العصر أبو إسحاق إبراهيم ابن خَفَاجة ٥٣٣ هـ = ١١٣٨ م سمع منه ديوانه وروى شعره.

واتصل كذلك باللّغوي عبدالله بن السِّيد البطليوسي ٥٢١ هـ = ١١٢٧ م صاحب التآليف المفيدة الشهيرة.

كما أنه دخل وزار عدّة مدن في الغرب الإسلامي منها: سبتة، ومكناس، وفاس، وسلا، وتلمسان وربما زار مدناً أخرى غيرها. وأخذ علوماً جمّة. وروى روايات شتّى عن أعلامها المشهورين.

فحياةُ هذا الرجل كانت حياة علم وبحث واستفادة ورحلة واطلاع. ولا نعلم أنه خاض غمرات الجاه والحكم لا في الأندلس ولا في أقطار المغرب العربي. كما لا نعلم أنه تولّى منصباً من المناصب. لا في عهد المرابطين. ولا في عهد الموحدين الذين خلفوهم في حكم الأندلس والمغرب.

وانتهى به المطاف إلى أن حط رحاله بمدينة فاس، واتخذها دار مقام عدّة سنوات، كانت حافلة بالأخذ والعطاء والتدريس والتأليف ومعرفة الرجال والمعالم والأعلام. ومن أجل ذلك كان مؤرخو فاس قديماً وحديثاً يذكرونه في كتبهم بوصفه عَلَماً من أعلامها. وبها كانت وفاته سنة ٥٦٩ هـ = ١١٧٣ م.

ويذكر المؤرخون أن مدفنه منها كان خارج باب عجيسة بالقرب من البرج التاريخي الذي كان يسمى برج الكوكب.

واشتهر ابن قرقول بكتابه المفيد في موضوع غريب الحديث الشريف المسمّى هكذا «مطالع الأنوار على صحاح الآثار في فتح ما استغلق من كتاب الموطأ ومسلم والبخاري وإيضاح مبهم لغاتها».

بهذا الاسم الطويل سمّى ابنُ قرقول كتابه كما يذكر صاحب كشف الظنون. وموضوعه شديد الشبه بموضوع كتاب «مشارق الأنوار» الذي ألّفه أستاذه القاضي عياض..

ومن أجل ذلك راجت تهمة في بعض المصادر تتعلق بأن ابن قرقول استغل عمل أستاذه عياض وحوّره حسب إرادته..

وصاحب كشف الظنون يكتفي بقوله: «وضعه على مِنْوَال «مشارق الأنوار» للقاضي عياض.

ونحن لا نستطيع الآن أن ندلي برأي خاص في هذا الموضوع لأنه يحتاج إلى

دراسة ومقارنة بين كتاب القاضي عياض المطبوع وكتاب ابن قرقول المخطوط.

ويمكن الاطلاع على مزيد من المعلومات عن مخطوطة كتاب ابن قرقول عند مراجعة الأرقام الآتية من فهرست خزانة «القرويين» بمدينة فاس، وهي هكذا: ٢٢٠ و٧٤٤ و١٠١٩.

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى إمامين شهيرين اعتمدا على كتاب ابن قرقول هما:

١ - **الإمام النووي المحدث المشهور ٦٧٦هـ - ١٢٧٧م** في مقدمة كتابه «تهذيب الأسماء واللغات». فقد ذكر كتابي عياض وابن قرقول بكونهما من المصادر التي اعتمد عليها في تأليف كتابه المذكور.

٢ - **مرتضى الزّبيدي ١٢٠٥هـ - ١٧٩٠م** في مقدمة كتابه «تاج العروس» فقد ذكر كتابي عياض وتلميذه ابن قرقول بأنهما من المصادر التي اعتمد عليها.

ونجد الزبيدي يستدرك على صاحب القاموس في «باب اللام فصل القاف» اسم: ابن قرقول ويعطي ملامح من ترجمته ويشير إلى كتابه: «مطالع الأنوار» ٨: ٧٩ ط بولاق سنة ١٣٠٧ هـ(١).

ومن أشهر تلاميذ أبي إسحاق ابن قرقول المنوّهين بسعة علمه وفضله ومكارم أخلاقه:

١ - أبو الخطّاب عُمر بن حسن ابن دحية الكلبي السبتي الأديب المؤلف الرّحالة ٦٣٣ هـ = ١٢٣٥ م مؤلف كتاب «المطرب من أشعار أهل المغرب»، فقد ذكره في كتابه هذا عدة مرّات، ونقل عنه وروى ما سمعه منه من إنشادات. كما روى عنه القصيدة التي خاطبه بها الشيخ أبو القاسم السُّهيلي ٥٨١ هـ = ١١٨٥ م عندما غادر مدينة سبتة وقصد مدينة سلا.

٢ - أبو الحجاج يوسف البلوي المعروف بابن الشيخ الأديب اللغوي الرحّالة مؤلف الكتاب الشهير الغريب في بابه المسمَّى «كتاب ألف باء للألباء» ٦٠٤ هـ = ١٢٠٧ م ويكفيه ابن قرقول فخراً وشُهرةً أن يكون كلٌ من ابن دحية والبلوي من تلامذته المعترفين بفضله وعلمه الواسع.

ومن الطَّريف في باب ثقافة المرأة في الغرب الإسلامي أن تكون لأبي إسحاق ابن قرقول «بنت فقيهة» عالمةٌ تسمَّى زينب بنت ابن قرقول تروي عن أبيها، ولم تغفلها ذاكرة التاريخ، فقد ذُكرتْ في معجم أعلام النساء بمجلة «اللّسان العربي» ص ٣٢١ العدد السابع. القسم الأول يناير ١٩٧٠، الرباط.

وفي مجال رواية المشارقة عن ابن قرقول يحدثنا أبو العباس المَقري ١٠٤١ هـ = ١٦٣١ م مؤلف كتاب: «نفح الطِّيب» (٢) في ترجمة أحد الوافدين على الأندلس من المشرق، وهو الشيخ تاج الدين بن حمويْه السَّرخسي أنه ذكر في رحلته عجائب شاهدها في المغرب ومشايخ لقيهم، منهم الحافظ أبو محمد عبدالله بن سليمان بن داود بن حوط الله الأنصاري. قال: سمعتُ عليه سنة سبع وتسعين وخمسمائة الحديث وشيئاً من تصانيف المغاربة. وروى لنا عن الحافظ أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن إبراهيم بن قرقول.

ولو اطَّلعنا على مشيخة ابن قرقول لكانت أمامنا صورة شبه متكاملة عن هذه الشخصية العلمية التي كانت لها إشعاعات متعددة في كل من الأندلس وبلاد المغرب العربي على عَهْدي المرابطين والموحدين.

ولا نودّع هذه الشخصية العلمية اللّامعة في كتب التاريخ والطبقات دون أن نشير إشارة عابرة إلى أن بعض الذين تحدثوا عن

ابن قرقول حاولوا أن يقفوا قليلاً عند ضبط كلمة قُرقُول وشرح مدلولها.
فنجد ابن خلكان وهو الضابط المحقق يقول:
«قُرقُول» بضمّ القَافيْن وسكون الرَّاء المهملة بينهما وبعد الواو لام».
أما عن معناها فيقول:
«وهو لقبٌ غلب على أبيه لنحافة كانت فيه. وهو اسم طائر رقيق نحيف الجسم.

الحواشي

١ - ينبغي أن نشير هنا إلى أنَّ مؤلف «هدية العارفين» إسماعيل البغدادي ذكر في المجلد الخامس، العمود (٩) كتابين لابن قرقول.. وسماهما هكذا: مطالع الأسرار ومطالع الأنوار...؟ وينقل عن ابن خلكان وبالرجوع إلى وفيات الأعيان لا نجد إلا كتاباً واحداً هو مطالع الأنوار.

٢ - انظر تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٦٨، ٣: ٩٩.

المصادر

١ - ابن الأبَّار، تكملة الصلة، القاهرة، ١٩٥٥.
٢ - ابن خلكان، الوفيات، تحقيق محيي الدين، القاهرة، ١٩٤٨.
٣ - ابن دحية، المطرب في أشعار أهل المغرب، القاهرة، ١٩٥٤.
٤ - ابن القاضي، جذوة الاقتباس، الرباط، ١٩٧٣.
٥ - البغدادي، إسماعيل، هدية العارفين، بيروت، ١٩٩٠.
٦ - حاجي خليفة، كشف الظنون، بيروت، ١٩٩٥.
٧ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، بيروت، ١٩٨٦.
٨ - الزبيدي، مرتضى، تاج العروس، بولاق، ١٣٠٧ هـ.
٩ - الصفدي، الوافي بالوفيات، بيروت، ١٩٧٦.
١٠ - الكتاني، سلوة الأنفاس، ط حجرية، فاس، ١٣١٦ هـ.

المقريزي

مؤرخ الديار المصرية وآثاره المخطوطة

الأستاذ عبد القادر أحمد عبد القادر

قسم المخطوطات بالمركز

لا يذكر تاريخ مصر إلا ويلمع اسم المقريزي مؤرخ الديار المصرية علماً بارزاً طار صيته في الآفاق واشتهر، بما جمع في كتبه من علم جمّ. إنه تقي الدين، أبو محمد(١)، أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن تميم بن عبد الصمد ابن أبي الحسن بن عبد الصمد بن تميم(٢) المقريزي(٣) الشافعي، ولد في القاهرة(٤) في حارة برجوان (قسم الجمالية حالياً)(٥) سنة ست وستين وسبعمائة للهجرة.

وكانت نشأته في أسرة عرفت أصولها بالمشاركة في تحصيل العلم وبثه؛ فجده لأبيه، عبد القادر بن محمد (- ٧٣٢ هـ) (٦)، نشأ في بعلبك، وسمع فيها على زينب بنت كندي، وكانت له رحلة في طلب الحديث النبوي وتحصيله الى حمص وحلب ودمشق والقاهرة والإسكندرية، وكان من أعيان الحنابلة وكبار المحدثين في الشام.

وجده لأمه، الزمردي، محمد بن عبد الرحمن بن علي(٧) (- ٧٧٦ هـ) كان عالما بالعربية والفقه والقراءات.

ووالده، لم نجد في مصادرنا ما يفيدنا كثيرا في نشأته وتكوينه وثقافته، فجلّ ما عرفناه أنه ولد في دمشق ، وسمع فيها الحديث النبوي، وأنه تحول إلى القاهرة، وتولى فيها بعض الوظائف المتعلقة بالقضاء، وغير ذلك(٨).

ومؤرخنا المقريزي نشأ نشأة حسنة فحفظ القرآن، وبعض المختصرات في الفقه الحنفي، وكان يعرض ما حفظه على جده لأمه.

ثم لم يقتصر على ذلك، فقرأ الفقه والحديث والقراءات واللغة والنحو والأدب والتاريخ على عدد وافر من أعلام العلماء، حيث يصرح بأنهم بلغوا ستمائة شيخ، من أشهرهم(٩) محمد بن علي بن يوسف الكردي الدمياطي، الحراوي(-٧٨١هـ). جويرية بنت أحمد بن الحسين الهكارية(-٧٨٣ هـ). النويري، محمد بن أحمد بن عبد العزيز، كمال الدين، أبو الفضل(-٧٨٦هـ). ابن طراد، أحمد

ابن محمد بن عبد المعطي، الأنصاري، شهاب الدين، أبو العباس(-٧٨٨هـ). الجمال الأميوطي، إبراهيم بن محمد بن عبد الرحيم اللخمي(-٧٩٠هـ)، وقد سمع عليه صحيح البخاري في مكة في أثناء مجاورته. العز بن الكويك، محمد بن عبد اللطيف بن أحمد الربعي(-٧٩٠هـ). العفيف النشاوري، عبد الله بن محمد بن محمد النيسابوري المكي(-٧٩٠هـ). النجمابن رزين، عبد الرحيم ابن عبد الوهاب بن عبد الكريم العامري القاهري (-٧٩١هـ). بن الشهيد، محمد بن إبراهيم بن أبي بكر(-٧٩٣هـ). بن الشيخة، عبدالرحمن بن أحمد بن مبارك الغزي (-٧٧٩هـ). النجم بن الكويك، أحمد بن إسماعيل بن محمد(-٧٩٩هـ). بن أبي المجد، محمد بن يوسف بن أبي المجد(-٨٠٠هـ). البرهان التنوخي، إبراهيم بن أحمد بن عبدالواحد (-٨٠٠هـ). بن سكر، محمد بن علي بن محمد (-٨٠١هـ) بن الملقن، عمر بن علي بن أحمد(-٨٠٤هـ). السويداوي، أحمد ابن الحسن بن محمد المقدسي(-٨٠٤هـ). العماد الحنبلي، أبو بكر بن أبي المجد بن ماجد المقدسي(-٨٠٤هـ). الزين التاجر، أبو بكربن محمد بن عبد الله(-٨٠٥هـ). البلقيني، عمر بن رسلان بن نصير سراج الدين العسقلاني(-٨٠٥هـ). الزين العراقي، عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن المهراني(-٨٠٦هـ). الفرسيسي، محمد بن حسن بن علي(-٨٠٦هـ). النور الهيثمي، علي ابن أبي بكر بن سليمان(-٨٠٧هـ). البرهان الظاهري، أحمد بن محمد بن إسماعيل(-٨٠٨هـ). ابن خلدون، عبد الرحمن ابن محمد بن محمد(-٨٠٨هـ). طاهر بن الحسن بن عمر الحلبي(-٨٠٨هـ). الأشموني، أحمد بن منصور بن عبد الله النحوي(-٨٠٩هـ). الأوحدي، أحمد بن عبد الله ابن الحسن(-٨١١هـ). الفيروز ابادي، محمد ابن يعقوب بن محمد مجد الدين الشيرازي(-٨١٧هـ). التاج الفرغاني، أحمد بن محمد بن أحمد(-٨٣٤هـ). بن خطيب الناصرية، علي بن محمد بن سعد(-٨٣٤هـ).

إلى جانب هؤلاء الشيوخ الذين تتلمذ لهم وقرأ عليهم العلوم المتنوعة حصل على إجازات عامة في أكثر من كتاب من شيوخ آخرين، لا يتسع المجال هنا لتسجيلهم أو ذكرهم.

عمله

نتيجة للثقافة الواسعة التي استطاع ان يحصلها من شيوخه، ومن قراءاته، إضافة إلى ما سنح له من الاتصال ببعض الأمراء، تهيأت له فرصة منادمة الظاهر برقوق(-٨٠١هـ) وابن الناصر فرج(-٨١٥هـ)، ففتح له ذلك الباب على مصراعيه يتقلب في بعض الوظائف الحكومية، وقد أشار اليها السخاوي بقوله: "... وناب في الحكم، وكتب التوقيع(١٠)، وولي الحسبة بالقاهرة والوجه البحري غير مرة، أولها كان في سنة ٨٠١ هـ، والخطابة بجامع عمر، وبمدرسة الناصر حسن، والإمامة بجامع الحاكم، وقراءة الحديث بالمؤيدية عوضا عن المحب ابن نصرالله. وحمدت سيرته في مباشراته، ولم يقف به الحد في شغل هذه الوظائف في مصر فقط، فقد انتقل إلى دمشق، وتولى فيها وظائف، حيث يقول السخاوي:

" وكذا دخل دمشق مراراً، وتولى بها نظر وقف القلانسي، والبيمارستان النوري، والتدريس في مدرسة دار الحديث الأشرفية

والمدرسة الإقبالية وغيرها.

وقد عرض عليه الناصر فرج قضاء الشافعية في الشام فأبى، ورشحه ليكون سفيرا له لدى تيمورلنك، ولكن قام بتنفيذ هذه المهمة بدلا عنه أحمد بن كندغدي"(١١).

ويشير السخاوي إلى اعتزاله لتلك الوظائف جملة دون تأريخ أو بيان سبب لذلك، فقال:

"ثم أعرض عن ذلك، وأقام ببلده عاكفا على الاشتغال بالتاريخ، حتى اشتهر به ذكره، وبعد فيه صيته، وصارت له فيه جملة تصانيف"(١٢).

مذهبه:

أشار ابن حجر إلى أن مؤرخنا المقريزي نشأ حنفيا على مذهب جده لأمه، ولكن ما لبث أن تحول شافعيا بعد أن جاوز العشرين ، بينما كان أبوه وجده لأبيه حنبليين"(١٣).

ويقول تلميذه ابن تغري بردي : إنه كان كثير التعصب على السادة الحنفية وغيرهم، لميله الى مذهب الظاهر(١٤) ولكن ابن حجر ينفي كونه ظاهريا حيث يقول: "كان يتهم بمذهب ابن حزم ، لكنه لا يعرف به"(١٥).

ومما هو جدير بالذكر أن ابن تغري بردي يقول مناقضا قوله الأول بقوله : "وكان ينسبه بعض الناس إلى الميل لمذهب الظاهر، والله أعلم بالباطن : لأنه كان يعظم ابن حزم المغربي الى الغاية، وليس في ذلك ما يعاب؛ لأن ابن حزم كان رجلا حافظا عالما، ولو كان ظاهريا لم ينكر فضله"(١٦).

ومن ترجمته لأعلام الصوفية في عصره، ومن خلال تسليمه بالكثير من مستغربات الحدوث، مثل مناجاته للموتى في مناماته، يشير ذلك إلى أنه كان ذا مشرب صوفي، حيث يدفع هذا المشرب صاحبه إلى الاستغراق في الماضي، ليكون له عوضاً عن الحاضر، فانزوى المقريزي في بيته معتكفاً، منصرفاً إلى العبادة والتأليف(١٧)، حيث وجد في ذلك السلوان عما افتقده من وظائف، وما أصابه من ضيق ذات اليد، إضافة إلى المرض الطويل(١٨) الذي كان فريسة له، حيث أفضى به إلى الموت عصر يوم الخميس، السادس والعشرين من رمضان(١٩) سنة ٨٤٥هـ. ودفن يوم الجمعة بحوش الصوفية البيبرسية(٢٠) مخلفا وراءه تراثاً ضخماً.

مصنفاته.

كان لمادة التاريخ الحظ الوافر في مصنفات المقريزي، وقد لمعت بعض الخواطر والمعارف والعلوم في مصنفات عرج فيها بقلمه عن موضوع التاريخ، حيث نستدل من ذلك على موسوعيته، كما هي حال المصنفين في عصره، ومع ذلك يجعله المؤرخون لحياته ضمن قائمة المؤرخين. وهذا ثبت لما توصلنا إليه من مصنفاته، وأماكن وجود مخطوطاتها وما طبع منها:

١ - اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء:

خصص هذا الكتاب للتأريخ للدولة الفاطمية منذ قيامها في المغرب العربي حتى سقوطها في مصر، مترجما لخلفائها، عارضا للحوادث التي وقعت.

وقد ذكره له السخاوي في الضوء اللامع ٢/٢٢، وابن تغري بردي في المنهل الصافي ١/٣٩٨، والشوكاني في البدر الطالع ٧/٨٠، والسيوطي في حسن المحاضرة ١/٥٥٧، وحاجي خليفة في كشف الظنون ١/٧، ٣٠٤، وجاء آخر عنوانه فيه "الخلقا" بالقاف من خلق الإفك، والبغدادي في هدية العارفين ١:١٢٧، وعلي مبارك في الخطط الجديدة ٦:٧٠.

نشر هذا الكتاب في ليبسك سنة ١٩٠٩م بعناية هيوغو بونز (Hugo Bunz)، ونشر

طبعة ثانية في دار الايتام بالقدس سنة ١٩١١، كما نشر الجزء الأول منه بتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال في القاهرة سنة ١٩٤٨، وصدر عن دار الفكر العربي، ضمن سلسلة مكتبة المقريزي الصغيرة. وأعيد طبعه سنة ١٩٦٧ ضمن منشورات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية. ونشر الجزء الثاني والجزء الثالث منه بتحقيق محمد حلمي السيد، الثاني سنة ١٩٧١ والثالث سنة ١٩٧٣، كما نشر بتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال سنة ١٩٦٧.

٢ - الإخبار عن الإعذار

عالج فيه موضوعا اجتماعيا، يدور حول ما يقام من الولائم بمناسبة الزواج والختان.

ذكره له في الضوء اللامع ٢:٢٢.

٣ - إزالة التعب والعناء في معرفة الحال في الغناء

ذكره له في الضوء اللامع ٢:٢٣ والخطط الجديدة ٦:٧٠، والمنهل الصافي ١/٣٩٨، وكشف الظنون ١/٧١، وهدية العارفين ١:١٢٧.

منه نسخة خطية بخط المؤلف في جامعة ليدن بهولندا، ضمن مجموع يحمل الرقم ٥٦٠:١٩، يشغل الأوراق ٢٠٣ - ٢١٣، أوراقه مضطربة، ورقة واحدة منها بمعرفة موضوع الغناء، وباقيها في ترجمة بني حميد.

٤ - الإشارة والإعلام ببناء الكعبة البيت الحرام

ذكره المقريزي لنفسه في كتابه الذهب المسبوك ٢٦، وذكره له في هدية العارفين١:١٢٧، وفي الكشف ١:٩٧، والضوء اللامع ٢:٩٧، والهدية ١:١٢٧.

منه نسخة خطية في الظاهرية بخط المقريزي نفسه تحت رقم ٤٨٠٥، وفي مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث صورة عنها في ميكرو فيلم رقم ١٢١٣. ومنه نسخة خطية في جامعة ليدن، محررة ومصححة بخط المؤلف تاريخها ٨٤٢ هـ، ضمن مجموع يحمل الرقم ١٦/٥٦٠ يشغل الأوراق ١٦٦ - ١٨٤.

٥ - الإشارة والإيماء إلى حل لغز الماء

رسالة صغيرة الحجم، ألفها سنة ٨٢٣ هـ على سبيل التسلية، وقد استعرض فيها معارفه الأدبية واللغوية والبلاغية والفقهية والعلمية البحتة، تدور حول تفسير لغز عن الماء.

ذكره له في الضوء اللامع ٢:٢٣.

منها نسخ خطية في مكتبة جامعة القاهرة تحت رقمي ٢٢٠٧٥، ١٦٢٤٧ ضمن مجموع رسائل المقريزي، كما توجد منه نسخة خطية في مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث قدّر لنا الاطلاع عليها وفهرستها، وفي المكتبة الأزهرية نسخة خطية برقم ١٤/٥، يوجد عنها صورة في مركز جمعة الماجد برقم ٤٥٤٠. ومنها نسخة خطية في جامعة ليدن ضمن مجموع يحمل الرقم ١٤/٥٦٠، تشغل الأوراق ١٨٥ -١٨٩، في آخرها نقص. نشر الكتاب في الرياض سنة ١٩٧٤م ١٣٩٢هـ في ٢٤ صفحة، بتحقيق أبوعبد الرحمن عقيل، طبع في مطابع الشرق الأوسط.

٦ - إغاثة الأمة بكشف الغمة

رسالة كتبها المقريزي في سنة ٨٠٨هـ على أثر المجاعات والكوارث الاقتصادية التي أصابت مصر فيما بين عامي ٧٩٦هـ - و٨٠٨هـ.

ذكرها له في كشف الظنون ١:١٢٨، وفي الهدية ١:١٢٧.

منها نسخة خطية في المكتبة الظاهرية بدمشق غير منسوبة لأحد. ونسخة في مركز

جمعة الماجد، برقم ٤٥٩٦.

نشرت هذه الرسالة في القاهرة لجنة التأليف والنشر، ط ٢، ١٩٥٧ بتحقيق محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال. وكانت الطبعة الأولى قد صدرت سنة ١٩٤٠ كما نشر في بيروت وصدر عن مؤسسة ناصر للثقافة سنة ١٩٨٠ ضمن سلسلة الاجتماع، خزانة الفكر العربي تحت رقم ٤٢.

كما طبع الكتاب في حمص في دار ابن الوليد سنة١٩٥٦، بعناية عبدالنافع طليمات، وقدم له بدر الدين السباعي.

٧ - الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام

رسالة لطيفة الحجم، كتبها في مكة في أثناء فترة مجاورته سنة ٨٣٩هـ.

ذكرها له في الضوء اللامع ٢:٢٢ باسم الإلمام فيمن تأخر بأرض الحبشة، والمنهل الصافي ١:٣٩٨، والبدر الطالع ٧:٨٠، وكشف الظنون ١:١٥٨، والإيضاح ١:١٢٢، والهدية ١:١٢٧.

منها نسختان خطيتان في المكتبة الخديوية تحمل الأولى الرقم نس ١ ج ١، ن خ ٥٥٠، والثانية الرقم ن ع ١٦٤٥٥، ونسخة في جامعة ليدن، ضمن مجموع يحمل الرقم ١٢/٥٦٠، يشغل الأوراق ٩٦-١٠٣ وهي محررة ومصححة بخط المؤلف سنة ٨٤١ هـ، ونسخة في مركز جمعة الماجد، رقم ,٤٥٩٦

طبعت هذه الرسالة في ليدن سنة١٧٩٠م بعناية المستشرق رنك ، كما طبعت مرة ثانية في مصر سنة ١٨٩٥ في مطبعة التأليف.

٨ - إمتاع الأسماع بما للرسول صلى الله عليه وسلم من الأبناء والأحوال والحفدة والمتاع.

مؤلف مطول في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، ذكر فيه الخلاف حول كثير من الوقائع، وقد حدّث المقريزي به في مكة في أثناء مجاورته فيها سنتي ٨٣٩، ٨٤٣هـ. ويقع في تسع مجلدات.

ذكره المقريزي في كتابه الخبر عن البشر، وذكره له في الضوء اللامع ٢:٢٢، والمنهل الصافي ١:٣٩٧، وشذرات الذهب : ٧:٢٥٥، والكشف ١:١٦٦، والهدية ١:١٢٧.

منه نسخة خطية محفوظة في مكتبه كوبريلي بتركيا تحمل الرقم ١٠٠٤، كتبت في شوال سنة ٩٦٨ هـ، ويوجد عنها صورتان إحداهما في دار الكتب المصرية وتحمل الرقم ٨٨٦، والثانية في معهد إحياء المخطوطات العربية في القاهرة، وتحمل الرقم ٦٣. ومنه نسخة في الجامع الأزهر برقم ١٠٠٤، ونسخة في المكتبة التيمورية برقم ٣٧.

طبع الجزء الأول من هذا الكتاب بتحقيق محمود محمد شاكر، سنة ١٩٤١ وصدر عن لجنة التأليف والترجمة والنشر في القاهرة.

٩ - الأوزان والمكاييل الشرعية

ذكره له في الضوء اللامع ٢:٢٣، والمنهل الصافي ١:٣٩٨، والخطط الجديدة ٦:٧٠، والكشف ١:٢٠١، والهدية ١:١٢٧.

منه نسخة خطية في مكتبة جامعة ليدن، نسخة محررة ومصححة بخط المؤلف سنة ٨٤١هـ، ضمن مجموع يحمل الرقم ٣/٥٦٠، يشغل الأوراق ٢٣ - ٢٨. نشر هذا الكتاب في ألمانيا سنة ١٨٠٠ بعناية تيكسن روستوك.

١٠ - البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب

رسالة كتبها المقريزي سنة ٨٤١ هـ، مشيرا إلى القبائل العربية التي دخلت مصر مع الفتح العربي وأماكن توزعها في عصره.

ذكرها له في الضوء اللامع ٢:٢٢، والبدر

الطالع ٧:٨٠، والمنهل الصافي ١:٣٩٨، والكشف ١:٢٦٢، والإيضاح ١:١٠٠ بعنوان الإعراب في سائر من دخل مصر من الأعراب.

منه نسخة في المكتبة الغربية بالجامع الكبير بصنعاء تحت رقم ٩١٠، وفي مكتبة جامعة ليدن ضمن مجموع يحمل رقم ٥٦٠/٨، يشغل الأوراق ٦٦ - ٧٨، محررة ومصححة بخط المؤلف سنة ٨٤١هـ، ونسخة في مركز جمعة الماجد رقم ٤٥٩٦. وطبع الكتاب في مصر سنة ١٩١٦، وسنة ١٩٦١، وسنة ١٩٨٩، بتحقيق الدكتور عبد المجيد عابدين وصدر عن عالم الكتب.

١١ - البيان المفيد في الفرق بين التوحيد والتلحيد

رسالة ذكرها له في الإيضاح ٢٠٧/١ طبعت هذه الرسالة في القاهرة سنة ١٩٦٩ بتحقيق الأب قنواتي.

١٢ - تاريخ الأقباط

كتاب مستخرج من كتاب المواعظ والاعتبار، وهو مطبوع.

١٣ - التاريخ الكبير المقفى

كتاب في تاريخ أهل مصر والواردين عليها، في ١٦ مجلدا.

ذكره له في الضوء اللامع ٢:٢٢، وذكر فيه أنه كان يقول: إنه لو كمل على ما يريد لجاوز الثمانين مجلدا، والمنهل الصافي ١:٣٩٧، والهدية ١:١٢٧، والبدر الطالع ٧:٨٠، وحسن المحاضرة ١:٥٥٧.

منه نسخة خطية في ليدن برقم (Or١٣٦٦)، والنسخة مجلد من مسودة المؤلف، وبه بعض حرف الألف وحرف الكاف واللام، وقسم كبير من حرف الميم، وفي معهد المخطوطات العربية في القاهرة صورة ميكروفيلم عنها.

وطبع من هذا الكتاب أربعة أجزاء بتحقيق محمد اليعلاوي من ثمانية أجزاء وكان قد أصدر محمد اليعلاوي جزءا من الكتاب، جمع فيه تراجم مغربية ومشرقية من الفترة العبيدية، عن دار الغرب الإسلامي سنة ١٩٨٧ في بيروت.

١٤ - التذكرة

مؤلف كبير في التاريخ ، قال ابن تغري بردي: كمل منه ٨٠ مجلدا.

ذكره له في المنهل الصافي ١:٣٩٨، والخطط الجديدة ٦:٧٠، والكشف ٢:١٦٠٣.

١٥ - تجريد التوحيد المفيد

كتاب صغير يدور موضوعه حول علم التوحيد، أضاف اليه التعريف بكثير من الفرق الإسلامية.

ذكره له في الضوء اللامع ٢:٢٣، والمنهل الصافي ١:٣٩٨، والكشف ١:٣٤٥، والهدية ١:٢٧.

يوجد من نسخة خطية في جامعة بريستون مجموعة جاريت برقم ١٤٩٦، وفي مكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٦٢٤٧/١١، وثلاث نسخ في مكتبة ندوة العلماء بالهند أرقامها ١٢٨٣، ٧٨٥، ٧٨٦.

١٦ - تراجم ملوك الغرب

كتاب يتضمن بعض ترجمات المغرب العربي، وقد تكون مذكرات جمعها المقريزي من قراءاته للانتفاع بها في بعض مؤلفاته.

١٧ - تلقيح العقول والآراء في تنقيح أخبار الجلة الوزراء

كتاب من عنوانه يوهم انه في تنقيح أخبار الوزراء.

ذكره لنفسه في كتابه الخطط ١:٤٤٣، ٢:٢٢٣.

اتعاظ الحنفا ١/١٨، ولم يذكر مصدره.

٢٥ - الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك

رسالة يدور موضوعها حول التأريخ لمن حج من الخلفاء والملوك في أثناء خلافته أو ملكه، فرغ من تصنيفها سنة ٨٤١ هـ.

ذكرها له في الضوء اللامع ٢:٢٣، والمنهل الصافي ١:٣٩٨، والخطط الجديدة ٦:٦٠، والكشف ٢:١٠٢٠، والهدية ١:١٢٧.

منها نسخة خطية في مكتبة شستربتي بدبلن برقم ٤١٠٢، ونسخة في مركز جمعة الماجد، رقم ٤٥٩٦.

وطبع الكتاب في القاهرة بتحقيق جمال الدين الشيال، وصدر عن مكتبة الخانجي سنة ١٩٥٥.

٢٦ - رسالة في الذكر

منها نسخة في جامعة ليدن، ضمن مجموع يحمل الرقم ٥٦٠/٤، تشغل الأوراق ٢٩ - ٣١، نسخة بخط المؤلف. ونسخة في مكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٦٢٤٧/١١.

٢٧ - رفع الريب في خضاب الشيب

يوجد منها نسخة في جامعة ليدن، ضمن مجموع يحمل الرقم ٥٦٠/١٨، تشغل الأوراق ١٩٠ - ٢٠٣.

٢٨ - السلوك في معرفة دول الملوك

كتاب يشتمل على تاريخ مصر في ظل حكم السلاطين الأيوبيين والمماليك من سنة ٥٦٧هـ الى سنة ٨٤٤هـ عدة مجلدات.

ذكره له في الضوء اللامع ٢:٢٢، والمنهل الصافي ١:٢٩٧، وشذرات الذهب ٧:٢٥٥، والبدر الطالع ١:٨٠، وحسن المحاضرة ١:٥٥٧، والكشف ١:٣٠٤، والهدية ١:١٢٧، والخطط الجديدة ٦:٧٠.

منه نسخة خطية في مكتبة شستربتي بدبلن برقم ٤١٠٢، ونسخة في مكتبة يكي جامع كتابخانه سنده برقم ٨٨٧، و نسخة في الظاهرية برقم ٧٣٠٤. طبع الكتاب بتحقيق محمد مصطفى زيادة في القاهرة، «لجنة التأليف والترجمة والنشر»، في ثلاث مجلدات ما بين سنتي ١٩٣٤ - ١٩٣٩، وطبع ثانية سنتي ١٩٥٦ - ١٩٥٨.

كما صدر في القاهرة أيضا بتحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور عن دار الكتب، مركز تحقيق التراث سنة ١٩٧٠ - ١٩٧٣م في جزئين بأربع مجلدات.

كما طبع منه نبذة بهمة المستشرق دي ساسي في كتاب الأنيس المفيد، وترجم منه الى الفرنسية الأستاذ كاتريمار قسما آخر سماه تاريخ السلاطين، وطبع في باريس سنة ١٨٣٧.

٢٩ - شارع النجاة في أصول الديانات واختلاف البشر فيها وفروعها مع بيان أدلتها وتوجيه الحق منها.

ذكره لنفسه في كتابه الذهب المسبوك ٥، ٧، وذكره له في الضوء اللامع ٢:٢٣، والكشف ٢:١٠٢٠، والهدية ١:١٢٧.

٣٠ - شذور العقود في ذكر النقود

كتاب يتحدث فيه عن أمور النقود الإسلامية وتاريخ النقود، ذكره له في الضوء اللامع ٢:٢٣، والمنهل الصافي ١:٣٩٨، والكشف ٢:١٠٣٠، والهدية ١:١٢٧، والخطط الجديدة ٦:٧٠.

منه نسخة خطية في مكتبة جامعة ليدن، عليها حواش بخط المقريزي سنة ٨٤١هـ، وبآخرها توقيع المؤلف، ضمن مجموع يحمل الرقم ٥٦٠/٢، يشغل الأوراق ١٥-٢٣. يوجد عنها مصورة في مكتبة متحف الآثار الفلسطيني بالقدس، وصورة عنها في معهد المخطوطات

العربية في مصر برقم ٣/١٩٠.
طبع هذا الكتاب عدة طبعات:
- في المانيا سنة ١٧٩٧م بعناية تيكس رستوك.
- في القسطنطينية سنة ١٢٩٨هـ = ١٨٨٠م في مطبعة الجوائب بعناية أحمد فارس الشدياق، ضمن مجموعة رسائل.
- طبعة بعناية أماير
- في النجف - المطبعة المرتضوية سنة ١٩٣٧، بعناية محمد صادق بحر العلوم، بعنوان النقود الإسلامية المسمى بشذور العقود، وطبع خامسة في المطبعة الحيدرية سنة ١٩٦٧.
- في مصر في المطبعة العصرية سنة ١٩٣٩، بعناية انستاس ماري الكرملي، ضمن كتابه النقود الإسلامية.

٣١ - الضوء الساري في معرفة خبر تميم الداري

رسالة يدور موضوعها حول الصحابي تميم بن أوس الداري، وقد روى عنه الرسول صلى الله عليه وسلم حديث الجساسة والمسيح الدجال، وذلك من باب رواية الفاضل عن المفضول، واستعرض فيها أنساب الناس وأنساب العرب.
ذكرها له في الضوء اللامع ٢٣:٢، والمنهل الصافي ٣٩٨:١، والخطط الجديدة ٧٠:٦، والكشف ١٠٨٨:٢، والهدية ١٢٧:١.
يوجد منها نسخة خطية في مكتبة جامعة ليدن بهولندا، ضمن مجموع يحمل الرقم ٥/٥٦٠، تشغل الأوراق ٣١ - ٤٤؛ وهي نسخة محررة ومصححة بخط المؤلف، ونسخة في مركز جمعة الماجد، رقم ٤٥٩٦.
وطبع الكتاب في القاهرة سنة ١٩٧٢ بتحقيق محمد أحمد عاشور، وصدر عن دار الاعتصام.

٣٢ - الطرفة الغريبة من أخبار وادي حضرموت العجيبة

كتاب لطيف الحجم، كتبه المقريزي سنة ٨٣٩ هـ، في أثناء مجاورته في مكة، واستقى مادته من بعض القادمين عليه من أهل حضرموت.
ذكره له في الضوء اللامع ٢٢:٢، والمنهل الصافي ٣٩٨:١، والبدر الطالع ٨٠:٧، والخطط الجديدة ٧٠:٦، والكشف ١١١٠:٢.
ثمة نسخة خطية في مكتبة شستربتي بدبلن برقم ٤١١٨، عنها مصورة في معهد المخطوطات العربية في الكويت برقم ٢/٧٧٦، ونسخة في مكتبة ولي الدين بتركيا، وعنها نسخة مصورة في مكتبة جامعةالقاهرة برقم ٢/٢٦٢٤٧، ونسخة في جامعة ليدن، ضمن مجموع يحمل الرقم ٧/٥٦٠، يشغل المخطوط الأوراق ٦٢ - ٦٥، مصححه من المؤلف سنة ٨٤١هـ، ونسخة في مركز جمعة الماجد برقم ٤٥٩٦.
طبع هذا الكتاب في ألمانيا بعناية نوسكوي سنة ١٨٦٦ مع مقدمة وترجمتها باللاتينية.

٣٣ - عقد جواهر الأسفاط في أخبار مدينة الفسطاط

كتاب تحدث فيه عن أحوال مدينة الفسطاط منذ الفتح الإسلامي إلى أن قدمت جيوش المعز لدين الله الفاطمي سنة ٣٥٨هـ.
ذكره لنفسه في كتابه اتعاظ الحنفاء ٤:١، وفي كتابه السلوك ٢٨:١، وذكره له في الضوء اللامع ٢٢:٢، والمنهل الصافي ٣٩٨:١، والبدر الطالع ٨٠:٧، وحسن المحاضرة ٥٥٧:١، والخطط الجديدة ٧٠:٦، والكشف ٢٠٤:١، والهدية ١٢٧:١.

٣٤ - العقود في تاريخ العهود

ذكـــره لـه في الكشـف ١:١١٥٦، والهـــدية ١٢٧:١.

٣٥ - قرض سيرة المؤيد لابن ناهض

ذكره له في الضوء اللامع ٢٣:٢.

٣٦ - ما شاهده وسمعه مما لم ينقل في كتاب

ذكره له في الضوء اللامع ٢٤:٢.

٣٧ - مجمع الفرائد ومنبع الفوائد

كتاب يشتمل على النقل والعقل المحتوي على فني الجد والهزل. قيل إنه كمل منه ثمانون مجلدا، كما قال ابن تغري بردي، وقال السخاوي : بلغت مجلداته نحو المائة.

ذكـره له في الضـوء اللامع ٢٣:٢، والمنهل الصـافي ٣٩٨:١، والخطط الجـديدة ٧٠:٦، والكشف ١٦٠٣:١، والهدية ١٢٧:١.

٣٨ - مختصر عجائب المقدور في نوائب تيمور

ذكره لنفسه في كتابه درر العقود الفريدة، والأصل لابن عرب شاه أحمد بن محمد، يتحدث فيه عن تيمور لنك . درر العقود ٣٢١:٢.

٣٩ - مختصر قيام الليل وقيام رمضان وكتاب الوتر

الأصل المختصر لأبي عبد الله محمد بن نصر المروزي (- ٢٩٤هـ).

الكتاب مطبوع في الهند سنة ١٣٢٠هـ (انظر فهرس التيمورية ١٩٦:٢).

وطبع في بيروت، ط ٢، سنة ١٩٨٣، وصدر عن دار عالم الكتب.

٤٠ - مختصر الكامل في الضعفاء لابن عدي

منه نسخة خطية في مكتبة ملا مراد باستانبول برقم ٥٦٩، وهي نسخة بخطه كتبت سنة ٧٩٥ هـ، ويوجد عنها مصورة في مكتبة الإمام الحكيم في النجف برقم ٧٢/٢، وعنها مصورة في معهد إحياء المخطوطات العربية في القاهرة برقم ٤٥٦.

٤١ - معرفة ما يجب لآل البيت النبوي من الحق على من عداهم

رسالة يدور موضوعها حول ما يجب لآل البيت النبوي على المسلمين من حبهم وإجلالهم ونصرتهم ومودتهم، فرغ من تأليفها سنة ٨٤١هـ.

ذكرها له في الضوء اللامع ٢٢:٢، والمنهل الصافي ٣٩٨:١، والبدر الطالع ٨٠:٧، والخطط الجديدة ٧٠:٦، والإيضاح ٦٣٣:١.

منها نسخة خطية في مكتبة جامعة ليدن بهولندا ضمن مجموع يحمل الرقم ١٣/٥٦٠، تشغل الأوراق ١٠٣-١١٥، محررة ومصححة بخط المؤلف سنة ٨٤١هـ.

طبع الكتاب في مصر سنة ١٩٧٣ بتحقيق محمد أحمد عاشور، صدر عن دار الاعتصام.

٤٢ - المقاصد السنية لمعرفة الأجسام المعدنية

كتاب يتحدث فيه عن كروية الأرض وحركتها وعن المعادن المكتشفة.

ذكـره له في الضـوء اللامع ٢٣:٢، والمنهل الصـافي ٣٩٨:١، والخطط الجـديدة ٧٠:٦، والهدية ١٢٧:١.

يوجد منه نسخة خطية في مكتبة جامعة القاهرة برقم ١٠/٢٦٢٤٧ ويوجد نسخة منه في مكتبة جامعة ليدن بهولندا ضمن مجموع يحمل الرقم ١١/٥٦٠، يشغل الأوراق ٩٠ - ٩٥، حررها وصححها المؤلف سنة ٨٤١ هـ.

٤٣ - منتخب التذكرة

كتاب يتحدث فيه عن ذكر العرب والفرس، لم يبق منه إلا مجلد لطيف انتخبه من كتابه التذكرة.

يوجد منه مجلد واحد في نسخة خطية في مكتبة باريس الأهلية برقم ١٥١٤عرب، عنها مصورة في دار الكتب المصرية برقم ١٦٥٨.

٤٤ - المنتقى من أخبار مصر لابن ميسر

يتحدث فيه عن تاريخ مصر فيما بين سنتي ٤٣٩ - ٥٥٣هـ، فرغ من تأليفه سنة ٨١٤هـ.

طبع هذا الكتاب في القاهرة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية سنة ١٩٨١ بتحقيق أيمن فؤاد السيد.

٤٥ - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار

مؤلف في تاريخ مصر وخططها ويسمى خطط المقريزي. ذكره له في الضوء اللامع ٢٢:٢، والمنهل الصافي ٣٩٧:١، وكشف الظنون ٣٠٤:١، ٧١٦، ١٨٨٩:٢، وشذرات الذهب ٢٥٥:٧، وحسن المحاضرة ٥٥٧:١، والهدية ١٢٧:١، والخطط الجديدة ٧٠:٦.

يوجد منه نسخة نفيسة في مكتبة المتحف العراقي، الجزء الأول والثاني برقم ٢٢٣٨٣، وفي المكتبة الظاهرية المجلد الأول برقم ٧٠٠٤، والمجلد الثاني منه نسختان برقم ٥٦٩٦، ٥٦٩٧، وقطعة أخرى منه برقم ٣٧٣٧، ونسخة من الجزء الثاني في الخزانة العمرية بدمشق برقم ١٢٦، ونسخة في مكتبة جامعة ليدن بهولندا، ونسخة في المكتبة الغربية بالجامع الكبير بصنعاء برقم ٩٠٨، ونسخة في ثلاث مجلدات في مكتبة توبنجن بألمانيا برقم ٦١٠٨، وقطعة أخرى منه في مكتبة توبنجن بألمانيا برقم ٦١٠٩، ونسخة من الجزء الأول في ميونخ بألمانيا برقم ٣٨٩، ونسخة أخرى من الجزء الأول في ميونخ بألمانيا برقم ٣٩٠، ونسختان أخريان من الجزء الأول في ميونخ بألمانيا برقم ١١٦، ونسخة من الجزء الأخير في ميونخ برقم ١٠٧، ونسختان من الجزء الأول في مكتبة جامعة ليدن برقم ٣٧١، ٢٧٦، ونسخة كاملة من الكتاب في مكتبة جامعة ليدن برقم ٢٧٦، ونسخة من الجزء الثاني في ليدن برقم ٣٧٢، ومن الجزء الثالث برقم ٣٧٢، والجزء الأول في مكتبة الفاتيكان برقم ٧٢٤، والنصف الثاني من الكتاب في مكتبة الحرم المكي الشريف برقم ١١١، ونسخة من النصف الثاني في مكتبة البديري بالقدس، ونسخة من الجزء الثاني في مكتبة جامعة بريستون مجموعة جاريت برقم ٥٩٥، وقطعة منه في تركيا كتبخانة شريف برقم ٢٤٣، وفي مكتبة إبراهيم باشا الجزء الأول برقم ٣٢٩٠ والجزء الثاني برقم ٣٢٩١.

طبع الكتاب بعناية قطة العدوي في بولاق سنة ١٢٧٠هـ. وأعيد طبعه في بغداد، مكتبة المثنى سنة ١٩٧٠م، وطبع في القاهرة في المعهد الفرنسي للآثار سنة (١٩١١-١٩٢٤) في سبع مجلدات مع ترجمة فرنسية، بتحقيق المستشرق غاستون فيات بوريانت وكازافونا، وأعيد طبعه في مطبعة النيل - (١٣٢٤-١٣٢٦هـ) في القاهرة، وطبع في مطبعة الساحل الجنوبي في بيروت في ثلاث مجلدات، وطبع في القاهرة في دار التحرير في ثلاث مجلدات سنة (١٩٦٧ - ١٩٦٨).

كما طبعت فصول منه منتقاة، منها أخبار قبط مصر بعنوان تاريخ الأقباط، بعناية هاماكر في أمستردام سنة ١٨٢٤، وبعناية وستنفلد غوتنجن سنة ١٨٤٥ وبعنوان القول الإبريزي للعلامة المقريزي نشره مينا اسكندر في القاهرة - مطبعة التوفيق سنة ١٨٩٨.

٤٦ - نبذ تاريخية

قد يكون هذا الكتاب ملتقطات جمعها المقريزي من مصادره ليستعين بها في مؤلفاته.

منه نسخة مخطوطة في مكتبة بلدية الاسكندرية برقم ٢١٢٥ د / ٢٥٩، وعنها مصورة في معهد إحياء المخطوطات العربية في القاهرة برقم ٨٤٥

٤٧ – نَحل عبر النَّحل

رسالة يدور موضوعها حول النَحل وما يخلف عنه من عسل وشمع.

ذكرها له في المنهل الصافي ١:٣٩٨، والهدية ١٢٧:١، والخطط الجديدة ٧٠:٦.

منها نسخة في مكتبة شستربتي بدبلن برقم ٤١١٨، ونسخة في جامعة ليدن، ضمن مجموع يحمل الرقم ١٦/٥٦٠، يشغل الأوراق ٤٤ – ٦٢، نسخة محررة ومصححة بخط المؤلف سنة ٨٤١ هـ، ونسخة في مركز جمعة الماجد، رقم ٤٥٩٦.

طبع الكتاب في القاهرة بتحقيق جمال الدين الشيال، لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٦.

٤٨ – النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم

رسالة يدور موضوعها حول استئثار بني أمية وبني هاشم بالخلافة من دون علي بن أبي طالب. ذكرها له في الضوء اللامع ٢٣:٢، والمنهل الصافي ٣٩٨:١، والكشف ٤٨٥:١، والايضاح ٦٣٣:٢، والهدية ١٢٧:١، والخطط الجديدة ٧٠:٦.

يوجد منها نسخة مخطوطة في مكتبة شستربتي بدبلن برقم ٧٧٦، وعنها مصورة في مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث فيلم رقم ٧٧٦، ونسخة في مكتبة البلاط في فيينا بالنمسا برقم ٨٨٦، ونسخة في المكتبة الظاهرية برقم ٣٧٣١. ومنها نسخة في جامعة ليدن، ضمن مجموع يحمل الرقم ١٥/٥٦٠، تشغل الأوراق ١٣٦ – ١٦٠، ونسخة في مركز جمعة الماجد رقم ٤٥٩٦.

طبع الكتاب في ليدن بعناية جرهاردنوس سنة ١٩٨٨م. وطبع في القاهرة بتحقيق د. حسين مؤنس سنة ١٩٨٨.

ومما هو جدير بالذكر أن قاسم بن قطلوبغا تلميذ المقريزي جمع من كتاب شيخه المقريزي – التذكرة – كتابه تاج التراجم في طبقات الفقهاء الحنفية، ومنه نسخة في المكتبة الظاهرية بدمشق برقم ٩٦٢٥، وأن محمداً العقيلي السنقاري(-١٣٣٢هـ) اختصر كتاب النزاع والتخاصم في مؤلف سماه فضل الحاكم في النزاع والتخاصم.

□ □ □

الحواشي

١ – هذا ما كناه به ابن حجر، بينما كناه السخاوي أبا العباس التبر المسبوك ١: ٤، والضوء اللامع ٢. ٢١.
٢ – انظر في نسبته، السلوك ٢ ٣٦٥ في ترجمته لجده لأبيه.
٣ – المقريزي نسبة إلى حارة المقارزة في بعلبك حيث نزلها جده الأعلى إبراهيم . انظر الضوء اللامع ٢: ٢١
٤ – المواعظ والاعتبار ١: ٢-٤.
٥ – المؤرخون في مصر، ص ٦.
٦ – السلوك ٢. ٣٦٥.
٧ – المرجع السابق ٣: ٢٤٥.
٨ – المرجع السابق ٣: ٣٢٦.
٩ – انظر الضوء اللامع ٢. ٢٣.
١٠ – اشار المقريزي إلى ذلك في كتابه المواعظ ٢. ٢٥٥.
١١ – الضوء اللامع ٢. ٢٢.
١٢ – المرجع السابق، الصفحة ذاتها.
١٣ – انظر إنباء الغمر ١: ١٧١
١٤ – المنهل الصافي ١. ٣٩٦.
١٥ – إنباء الغمر ١: ١٧١.
١٦ – حوادث الدهور ١. ٩.
١٧ – الضوء اللامع ٢. ٢٢.
١٨ – المرجع السابق ٢: ٢٥.
١٩ – كذا في إنباء الغمر ٩. ١٧٢ وفي الضوء اللامع ٢ ٢٥
٢٠ – الضوء اللامع ٢: ٢٥.